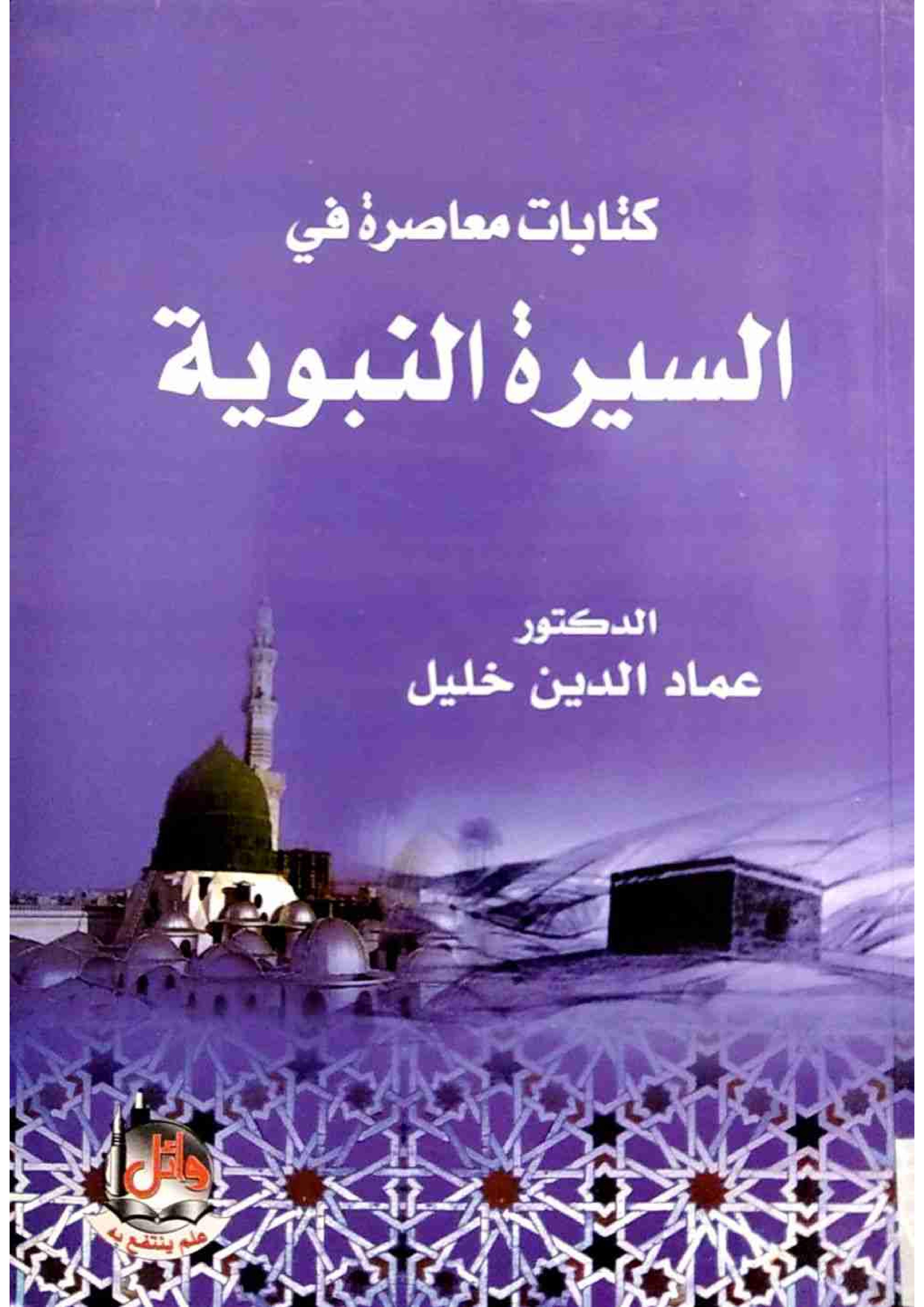

كتابات معاصرة في
السيرة النبوية
الدكتور
عماد الدين خليل
وائل
علم ينتفع به

كتابات معاصرة في

السيرة النبوية

الدكتور

عماد الدين خليل

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٢٦/٧/٢٠٠٦)
خليل ، عماد
كتابات معاصرة في السيرة النبوية / عماد الدين خليل .
- عمان ، دار وائل ، ٢٠٠٦ .
(١٠٨) ص
ر.إ. : (٢٠٢٦/٧/٢٠٠٦)
الواصفات: السيرة النبوية / الاسلام
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

****

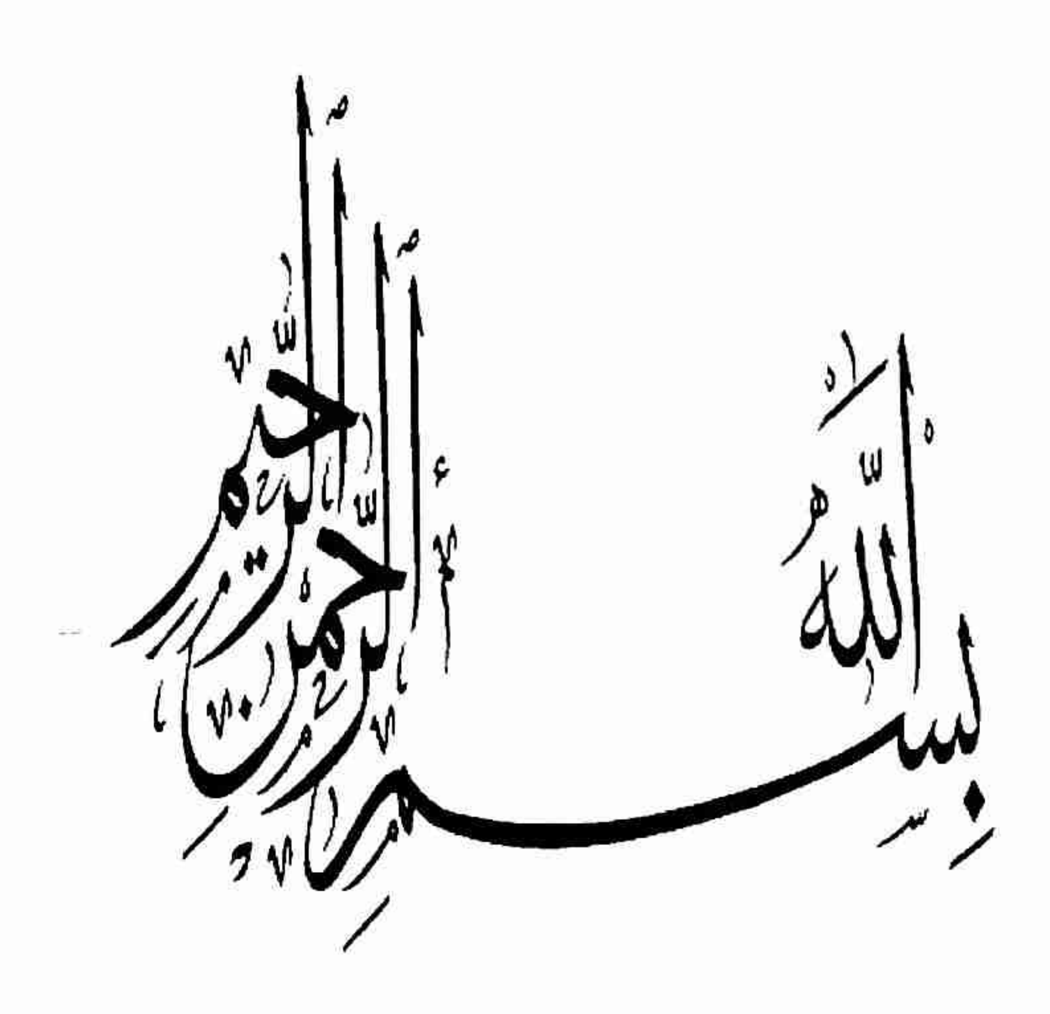
رقم التصنيف العشري / ديوي : ٢٣٩
ISBN 9957-11-670-3 (ردمك)

* كتابات معاصرة في السيرة النبوية
* الدكتور عماد الدين خليل
* الطبعـــة الأولى ٢٠٠٨



دار وائــل للنشر والتوزيع

* الأردن – عمان – شارع الجمعية العلمية الملكية – مبنى الجامعة الاردنية الاستثماري رقم (٢) الطابق الثاني
هـاتف : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣٨٤١٠ – فاكس : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣١٦٦١ – ص. ب (١٦١٥ – الجبيهة)
* الأردن – عمــان – وســط البـلد – مجمـع الفحيص التجـــاري- هـــاتف: ٠٠٩٦٢-٦-٤٦٢٧٦٢٧
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويـــات

المقدمـــة

الى عهد ليس ببعيد (ربما يكون منتصف القرن الماضي) كانت البحوث والدراسات والمصنفات المعنية بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الرسالة تنحو – في معظمها – منحى تقليديا يرمي بثقله في اتجاه المعارك والغزوات والشمائل، وقد يعالج المفردات الدعوية والتشريعية والسلوكية منفصلة عن سياقها العضوي العام، لكنه لم يكد يلتفت الى البعد الحضاري لهذا العصر الذي اقام دولة كبرى، ونسج تشريعا خصبا ، وهيأ الشروط لقيام حضارة متميزة.

ثم ان معظم الباحثين سحبوا رؤيتهم التجزيئية في تعاملهم مع العصر الى صيغ التعامل مع "المصادر" التي استقوا منها مادتهم التاريخية. فلم يحاولوا الا في القليل النادر، ان يكسروا الفواصل بين انماط تلك المصادر ، وان يستدعوا كل تلك الانماط من اجل وضع أيديهم على الصورة الاكثر مقاربة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الرسالة : القرآن الكريم وتفاسيره ، الحديث النبوي الشريف ، كتب الادب ودواوين الشعر ، كتب الفقه ، كتب الجغرافيا والرحلات ، فضلا عن كتب التاريخ في انماطها كافة: السيرة ، التاريخ العام ، التاريخ المحلي، تواريخ المدن ، التراجم ، الانساب والطبقات .

هذا الى انهم التزموا الخط الزمني لوقائع السيرة ، فكانوا يتحدثون عن وقائع كل سنة مجتزأة عن وحدتها الموضوعية ، اسوة بما كان الاجداد يفعلونه فيما يسمى بالحوليات . وكان هذا يمارس تقطيعا للوقائع الاساسية، واختراقا لنسيجها بوقائع اخرى تتحرك في سياق مغاير، كأن يتم الحديث في السنة او الحولية الواحدة عن الصراع ضد الوثنية ، واليهود ، والبيزنطيين، والمنافقين ، جنبا الى جنب مع المعطيات التشريعية او الدعوية او التعبدية او السلوكية...الخ.

كما ان الرؤية النقدية كادت ان تغيب عن تلك الاعمال فكان اصحابها يسلمون بالغث والسمين، ما يمكن قبوله وما لا يمكن .. الامر الذي اضاف الى وقائع السيرة الاساسية اجساما غريبة ، وقادها الى نوع من التضخم على حساب بنيتها الاصيلة المتفق عليها.

ولحسن الحظ بدأ النصف الثاني من القرن الفائت يشهد تطورا ملحوظا في دراسات السيرة ، على مستوى المنهج والموضوع ، وراحت هذه الدراسات تزداد - بمرور الوقت- نضجا واحكاما بسبب من الوعي المتزايد بمطالب منهج البحث من جهة ، والرغبة العلمية الصادقة في الرد على المحاولات الجانحة في التعامل مع السيرة ، سواء جاءت من الخارج على يد المستشرقين بأجنحتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم كافة ، او من الداخل على ايدي المغالين او العلمانيين او المنساقين وراء الميول والاهواء والتحزبات ، او المتأثرين بالمعطيات الاستشراقية في توجهاتها كافة.

ثم جاء تنامي النشاط الاكاديمي ، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات ، لا لكي تعزز القيم المنهجية الاصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وانما – ايضا – لكي تنفذ دراسات معمقة في هذه الواقعة او تلك ، وفق معايير نقدية صارمة ، وقدرة على الامساك بالدقائق والتفاصيل والجزئيات ، تعين الباحث على الايغال في شرايين الواقعة من اجل الوصول ، او محاولة الوصول الى بنيتها الاساسية كما تشكلت فعلا ، لا كما اراد لها الرواة والاخباريون والمؤرخون ان تكون.

وفي موازاة هذا ، اخذت تظهر دراسات تخصصية في السيرة باتجاه آخر ... لا تقف عند هذه الواقعة او تلك في نسيجها العام ، وانما تتعامل معها ككل ، ولكن من منطلق منهجي محدد يسعى لان يتابع معطيات السيرة عبر هذا التوجه او ذاك في مجراها العام.

وهكذا ظهر كتاب "فقه السيرة" للغزالي لكي يقدم رؤية "دعوية" للسيرة ، وكتاب البوطي بالعنوان نفسه لكي يقدم رؤية فقهية ، والشهيد سيد قطب ومنير الغضبان لكي يقدما رؤية حركية ، وباحثون اخرون قدموا رؤية تربوية او اخلاقية او سلوكية او سياسية .. هذا الى قيام الدكتور اكرم العمري وعدد من طلبة الدراسات العليا بتنفيذ منهج المحدثين في التعامل مع مرويات السيرة.

وفي موازاة هذا كله استمرت مكتبة السيرة تشهد دراسات شمولية تتناول السيرة في حلقاتها كافة ، ولكن وفق منهج اكثر دقة وانضباطا واحكاما ، يسعى لان يضم جناحيه على ابعاد السيرة كافة دعوية وحركية وفقهية وسلوكية وسياسية وعسكرية ... محاولا الا يمرر الا المرويات الاكثر قبولا على مستوى الرواية والدراية ، او الاسناد والمتن.

ولكن رغم هذا العطاء السخي ، ظلت هنالك حلقة لم تنل حظها من البحث والدرس والاستقصاء والتحليل ، بالمقارنة مع الحلقات الاخرى ، تلك هي الحلقة الحضارية ، او بعبارة اكثر دقة ، محاولة متابعة البعد الحضاري للسيرة ، وتقديم تصور متكامل عن معطياته الاساسية.

ورغم ان العقدين الاخيرين شهدا عددا من المحاولات في هذا الاتجاه لا تتجاوز – ربما – اصابع اليد الواحدة ، فان الحاجة لا تزال تتطلب المزيد من المحاولات ، من اجل اعطاء هذا الجانب من السيرة حقه ، والالمام بجوانبه كافة.

لقد بشر عصر الرسالة بمشروع حضاري ، وتمكن من تنفيذ العديد من حلقاته ، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية التي مكنت الامة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن.

ولعل المدونات الاولى لاخباريّي ومؤرخي السيرة (كمغازي الواقدي ، وسيرة ابن اسحق، وطبقات ابن سعد ، وانساب البلاذري ، وتاريخ الطبري ...الخ) ، باعطائها مساحة واسعة للمغازي (واحيانا للرجال او الشمائل) ضيقت الخناق على البعد العمراني

او الحضاري لعصر الرسالة الذي تمكن بعد كفاح مرير من اقامة دولة الاسلام ، ووضع التأسيسات الاولى لحضارته المتميزة.

عشرات السنين ومئاتها ، ونحن نتحدث عن هذا العصر من الداخل ، وبرؤية تجزيئية تتمركز عند الغزوات ، والشمائل ، والمفردات الفقهية ، ولقد آن الاوان لاعتماد "رؤية الطائر"اذا صح التعبير ، لاستشراف الملامح الاساسية للعصر ، والانجازات الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنه .

ولابد ، من اجل التحقق برؤية كهذه ، من استدعاء المؤرخ والمفسر والمحدث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والاديب ، لتوسيع نطاق الفضاء المعرفي عن العصر .. هاهنا حيث يصير النصّ القرآني والحديث النبوي الصحيح ، والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه ، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي ، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر او الاديب .. فضلا عن الدلالات المحددة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي .. المصادر الاساسية التي يكمل بعضها الاخر من اجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له ، ووضعت شروطه التأسيسية ، ونفذت بعض حلقاته ، "سيرة" رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اننا ونحن نتحدث عن "السيرة" وشروطها المنهجية ، يجب الا ننسى - لحظة واحدة- ان القرآن الكريم هو الوثيقة "التاريخية" الاكثر اهمية في دراسة العصر ومحاولة الالمام بنبضه الاساسي وملامحه المتفردة ، وانه - اي القرآن الكريم- ينطوي على شبكة خصبة من المعطيات التاريخية التي تحمل مصداقيتها المطلقة ، والتي تشكل -بالتالي- نقاط الارتكاز في بنية السيرة حيث يجيء المحدث والفقيه والمؤرخ واللغوي والجغرافي والاديب فيقيم بنيانه عليها.

وبنظرة سريعة الى "اسباب النزول" في التفاسير القرآنية والمصادر الخاصة بالموضوع ، يتبين للمرء الالتحام الحميم بين التنزيل والتاريخ ..ان المعطى القرآني

يرهص، ويصف ، ويعقب ، وينذر ، ويعد ، وهو في خطواته الخمس هذه يمارس تغطية تاريخية للعديد من وقائع السيرة المتشكلة في الزمن والمكان .. اي في التاريخ .

ولقد تحدث الشهيد سيد قطب طويلا عن هذه المسالة وهو يكتب مقدماته الخصبة في "الظلال" ، عبر تفسيره للسور التي قدمت مادة سخية عن العديد من الغزوات والوقائع والمعطيات التشريعية ، على مدى عصر الرسالة من بدئه حتى منتهاه ... كما تحدث عن طريقة عمل القرآن الكريم في احداث التغيير ، وهو في بدء التحليل ونهايته ، تغيير تاريخي ينطوي بالضرورة على بعده الحضاري او العمراني ، بالمفهوم الشامل للكلمة .

لقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الكادحة وجهده الموصول حتى آخر لحظة ، شهادة حية على قدرة هذا الرجل — النبي ، على الانجاز والتغيير ، بكل ما تنطوي عليه الكلمتان من بعد حضاري ، ولقد جاءت شهادة الباحث الامريكي المعاصر "مايكل هارت" في "المائة الاوائل" تأكيدا لهذا المعنى.

لقد حاول الباحث المذكور ان يستقصي ويدرس بمعياري الانجاز والتغيير، اعظم مائة شخصية في تاريخ البشرية ... ثم مضى لكي ينفذ خطوة تالية ، باختيار اعظم رجل من بين هذه الشخصيات المائة ، وبالمعيارين ذاتهما ، فاذا باختياره يقع على محمد صلى الله عليه وسلم فيعتبره اعظم شخصية في التاريخ ، وذلك في قدرته على تنفيذ انجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معا.

وعندما جاءت السنة التاسعة للهجرة ، ونزلت آيات (او اعلان) براءة في صدر سورة التوبة ، لتصفية الوجود الوثني في جزيرة العرب ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حقق ، وصحابته الكرام رضي الله عنهم على مستوى الفعل التاريخي ، المنجزات التالية التي ينطوي كل منها على بعد حضاري مؤكد:

اولا: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

ثانيا: الوحدة في مواجهة التجزؤ.

ثالثا: الدولة في مواجهة القبيلة.

رابعا: التشريع في مواجهة العرف.

خامسا: المؤسسة في مواجهة التقاليد.

سادسا: الامة في مواجهة العشيرة.

سابعا: الاصلاح والاعمار في مواجهة التخريب والافساد.

ثامنا: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى .

تاسعا: المعرفة في مواجهة الجهل والامية.

عاشرا: الانسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخلقية والسلوكية المتجذرة في العقيدة، في مواجهة "الجاهليّ" المتمرس على الفوضى والتسيب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

وكانت آيات القرآن الكريم واحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليمه قد ارست جملة من القيم المنهجية وآليات العمل التي مهدت للمتغيرات العشرة آنفة الذكر ، ودعمتها ، ووضعت — الى جانبها- شبكة من الشروط هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري ، ومن بين تلك القيم والاليات:

١. المعرفة هي حجر الزاوية.

٢. النزوع الى الامام.

٣. التحذير من هدر الطاقة.

٤. مبدأ الاستخلاف.

٥. مبدأ التسخير .

٦. التحفيز على العمل والابداع.

٧. مجابهة التخريب والافساد.

٨. التوازن بين الاضداد والثنائيات ، وتوحدها.

٩. التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون.

١٠. تحرير الانسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة [١] .

لقد جاء الاسلام لكي يتحرك وفق دوائر ثلاث تبدأ بالانسان وتمر بالدولة وتنتهي الى الحضارة التي سيقدر لها ان تنداح لكي تغطي مساحات واسعة من العالم القديم.

ولقد اجتاز الاسلام في مكة دائرة الانسان ، ثم ما لبثت العوائق السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية ان صدته عن المضي في الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة، لانه — بلا دولة- ستظل دائرة الانسان — التي هي اشبه بنواة لا يحميها جدار — مفتوحة على الخارج المضاد بكل اثقاله وضغوطه وامكاناته المادية والادبية ، ولن يكون بمقدور الانسان الفرد او الجماعة المؤمنة التي لا تحميها دولة ، ان يمارسا مهّمتهما حتى النهاية ، لا سيما اذا كانت قيمهما وأخلاقيّاتهما ورؤيتهما للكون والحياة والانسان والمصير تمثل رفضا حاسما للوجود الجاهلي ، ولابد اذن من ايجاد الارضية الصالحة التي يتاح فيها للمسلم والجماعة الاسلامية ان ينسجا مشروعهما قبل ان تسحقهما الظروف الخارجية و تنحرف بهما عن الطريق ، وليست هذه الدائرة سوى الدولة التي كان على المسلمين ان يقيموها والا ضاعوا.

---

(١) تمت معالجة هذه المبادىء بالتفصيل في كتاب (مدخل الى التاريخ والحضارة والاسلامية) للمؤلف ، الجامعة الاسلامية العالمية ، ماليزيا – ٢٠٠١ م ، ص٣٠٩ –٣٢٨.

لقد تاكد للرسول صلى الله عليه وسلم بعد كفاح طويل استمر اكثر من عقد ان القيادة الوثنية المكية لا يمكن بحال ان تهادن الدين الجديد الذي جاء يمثل رفضا حاسما لكل قيم الوثنية واهدافها وتقاليدها ومصالحها ، وانها ستظل تدفع حتى النهاية الاخطار التي يمثلها الاسلام بوجه هذه المصالح والتقاليد والاهداف.

وهكذا جاءت "الهجرة" لكي تنقل المسلمين الى الدائرة الثانية وتمكنهم من اقامة دولتهم، والبدء بنسج مشروعهم الحضاري المتميز .

ان اليوم الثاني عشر من ربيع الاول من السنة الاولى للهجرة هو نهاية حركة حاسمة من اجل اقامة الدولة التي ستتولّى قيادة حركة الاسلام في العالم ، لكنه في الوقت نفسه بدء حركة حاسمة اخرى من اجل تعزيز الدولة واقامة الحضارة ، تماما كما كانت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم في البدء حركة صوب تكوين الانسان المؤمن صانع الدول والحضارات.

لقد كان هدف الجهد النبوي في عصر الرسالة هو التأسيس لحضارة ايمانية تستمد منهجها ومفرداتها من هدي الله سبحانه ، وتقوم على لقاء الوحي بالوجود ، لمجابهة حضارات الكفر والضلال، وازاحتها ، والتحقق بالبديل الحضاري الملائم للانسان ووظيفته التعبدية والعمرانية .. البديل المتوازن في مواجهة حضارات الميل والانحراف: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا﴾.

يتضمن هذا الكتاب عرضا ودراسة لاربع محاولات معاصرة في السيرة النبوية للندوي والنورسي والغزالي وسيد قطب (رحمهم الله جميعا).

وما هي الا شواهد محدودة فحسب لسيل من الدراسات والبحوث التي شهدتها مكتبة السيرة النبوية في القرن المنصرم ، وقد عولج بعضها من قبل العديد من الدارسين وظل بعضها الاخر ينتظر المعالجة.

ويبقى عصر الرسالة منجما سخيا للعطاء وفق هذا المنهج او ذاك ، فيما لم يشهده عصر من العصور . وما ذاك الا لما حققه هذا العصر من تغيير جذري محليا واقليميا وعالميا ، وعلى كل المستويات ، ولما انطوى عليه من قيم وخبرات تملك القدرة على الفاعلية والحضور في كل زمن ومكان.

ومن الله وحده التوفيق

الموصل: د. عماد الدين خليل

السيرة النبوية

للشيخ

ابي الحسن الندوي

كتب هذا البحث بناء على طلب من الشيخ الندوي (رحمه الله) ليكون مقدمة للطبعة الثامنة للكتاب ، ولكن ظروفا فنية — على الارجح — حالت دون ذلك . وقد نشر ضمن الكتاب الذي اصدرته رابطة الادب الاسلامي العالمية عام ٢٠٠٢ م بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة للرابطة والمنعقد في استانبول عام ١٩٩٦ م بعنوان "الشيخ ابو الحسن الندوي: بحوث ودراسات"٠

تشكل المقدمة التي كتبها الاستاذ الندوي للطبعة الاولى من مؤلفه القيم عن (السيرة النبوية) [٢] مفتاحا ، او مدخلا ، لابد من التوقف عنده قليلا لفهم ما الذي اراد ان يقوله او يفعله وهو يؤلف كتابه هذا.

ومن اجل ذلك فان من الضروري — كما يقول النقاد البنيويون — " تفكيك النص " في محاولة للتأشير على العناصر الاساسية للمقدمة باعتبارها مرتكزا للعمل ومبررا لاخراجه في الوقت نفسه.

ان هذه العناصر - والحق يقال - لتمنح القارىء ، حتى قبل مطالعة فصول الكتاب ، القناعة بمبرر ظهور بحث جديد عن السيرة – بقلم الاستاذ الندوي – بل بضرورته.

فلم يكن الامر – كما قد يتوهم البعض – مجرد رغبة مخلصة لاضافة كتاب جديد الى قائمة المؤلفات الحديثة في سيرة الرسول المعلم عليه افضل الصلاة والسلام ، وان كانت هذه الرغبة في حد ذاتها ، تحمل ، على المستوى الديني في الاقل، مبرراتها ودوافعها المقنعة . انما بالنسبة لباحث متمرس كالاستاذ الندوي ، فان خطوة كهذه ما كان لها ان تشق طريقها الى التحقق لو لم يعرف الرجل مسبقا انها ستقدم اضافة جديدة الى مكتبة السيرة ، ان على مستوى المنهج او مستوى الموضوع. ويكفي ان يقع الاختيار على كتاب الندوي ، من بين عشرات وربما مئات من الابحاث في السيرة ، لنقله الى الانكليزية ، وعدد من اللغات الحية ، ومخاطبة العقل الغربي بمفردات هذه السيرة ودلالاتها ، مهندسة وفق منهج الندوي واسلوبه، لكي يتبين ان

---

(٢) طبع الكتاب سبع طبعات كانت اولاها في القاهرة عام ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م وثانيتها في بيروت عام ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م ، وقد صدرت بمناسبة انعقاد (المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية) في محرم عام ١٤٠٠هـ – تشرين الثاني ١٩٧٩ م ، وعني بطبعها ومراجعتها الاستاذ عبد الله بن ابراهيم الانصاري ، مدير الشؤون الدينية في الدوحة – قطر . ثم توالت بعدها الطبعات حتى كان اخرها الطبعة السابعة ، المزيدة والمنقحة ، التي اصدرتها دار الشروق في جدة عام ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م . وهي الطبعة التي ستعتمد في هذا التقديم.

هذا ، من بين عوامل متشابكة كالتي سنؤشر عليها ، ما يجعل الكتاب اضافة جادة وليس تقليدا او تكرارا.

ومهما يكن من امر فاننا لو قمنا باعادة ترتيب العناصر الاساسية للمقدمة ، في سياقات رئيسية ، من اجل وضع اليد على قيمة الكتاب فاننا سنجد محاولة الندوي هذه تقوم على المحاور التالية :

أولا: بيئة ثقافية ذات توجه اسلامي ينشأ فيها المؤلف ، فيجد نفسه ، منذ تفتح وعيه على الحياة، قبالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة ومعايشة .. وبمرور الوقت فانه يسعى لتنمية خبراته عن السيرة بمزيد من القراءة والدراسة في المصادر (القديمة) والمراجع (الحديثة) بالعربية وغيرها من اللغات . هذه المتابعة الفكرية التي لم تنفصل يوما عن بطانتها الوجدانية ، بسبب من عقيدة الرجل وانتمائه البيئي ، وبالتالي فانها بصيغتها الشمولية هذه والقائمة على ما يسمى في العصر الحديث بـ (المعايشة التاريخية) ، كانت اقدر على تحقيق المقاربة بين الندوي وبين عالم السيرة الخصب المؤثر ، المتجذر في الغيب ، والذي لن يقدر باحث من الخارج ، او من بعيد، على فهمه وادراكه .

ويجب ان نضيف ها هنا ان الندوي من اجل استكمال ابعاد تجربة المعايشة هذه ، ذهب اكثر من مرة الى ارض النبوة واجتازها شبرا شبرا ، وكان ،وهو يعاين المعالم والمواقع ويدققها ، يعيش في الوقت ذاته ، المناخ الذي تخلقت فيه مفردات السيرة ونسجت خيوطها . ويكفي ان نرجع الى كتاب (الطريق الى المدينة) [٣] لكي نتلمس طبيعة المعاناة الوجدانية التي حملها الرجل بين جنبيه وهو يتقلب هناك.

ان هذه الخطوات كافة منحت الندوي، كما منحت قلة محدودة من الباحثين المعاصرين، السلاح الذي مكنهم من دخول الساحة ، والقدرة على التعامل مع السيرة باكبر قدر ممكن من النفاذ والصدق.

---

(٣) المكتبة العلمية – المدينة المنورة – ١٣٨٥ هـ.

ثانيا: لم يقدم الندوي مباشرة على الكتابة في السيرة ، كمشروع شامل ، قبل ان يمارس البحث في جوانب منها ، كانت اشبه بخطوات على الطريق بتمرينات اولية ، اذا صح التعبير، تمهيدا للعرض الجامع الاخير[٤]. وكان فضلا عن هذا يمارس التعامل مع السيرة باتجاه مواز اخر: الاستمداد من مادتها الخصبة وتعاليمها الغنية في الكثير من كتاباته ومحاضراته .

ثالثا: بمرور الوقت يتبلور لديه احساس متزايد بضرورة كتابة مؤلف شامل عن السيرة ، وكانت تغريه بذلك ، فضلا عن المؤثرات الذاتية والثقافية والمنهجية آنفة الذكر ، خصائص ومواصفات كان يرى ، محقا ، ان اية دراسة في السيرة لا تستكمل اسبابها بدون حضورها جميعا ، فكيف ان غاب عامل او اكثر عن رؤية الباحثين ، كما حدث ويحدث لدى العديد من الذين تناولوا الموضوع من المستشرقين ، والمنتمين لعالم الاسلام نفسه ؟ كيف ان غاب معظمها احيانا ؟ الا يتحتم في مقابل هذا ان تتعزز المحاولات المنهجية التي تسعى جهدها لاستكمال الاسباب ، وان تزيد وتتكاثر ، على الاقل لمجابهة هذا السيل من الاعمال الناقصة وموازنتها؟

اذن "فالسيرة" التي ينادي الندوي بها ويسعى الى تنفيذها في مؤلفه الذي بين ايدينا ، يتحتم قيامها على الخصائص وصيغ العمل التالية :

(١) ان تبنى باسلوب عصري علمي ، فما من شك في ان مناهج البحث المعاصرة ومعطيات العلوم الحديثة تقدم وسائل جيدة للمؤرخ ما كان يملكها الباحثون القدماء ، وبالتالي فانها تساعد على الاقتراب اكثر من طبيعة الحدث التاريخي وتركيبه وعرضه بالصيغ الاكثر دقة . ويبدو ان من فضول القول ، ان نشير هاهنا الى

---

(٤) انظر بشكل خاص (الطريق الى المدينة) والفصول الاولى من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ورسالة (دراسة للسيرة النبوية من خلال الادعية المأثورة المروية) التي نشرها المختار الاسلامي مترجمة الى العربية ، وكذلك كتاب (النبي الخاتم) وهو على ما يبدو مجموعة مقالات صدرت عن المجمع الاسلامي العلمي في الهند بالعربية والانكليزية عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤م).

ان هذه المناهج وتلك المعطيات العلمية ترتد في اصولها وبدرجة كبيرة الى معطيات الحضارة الاسلامية في هذه المجالات ، وهي مسألة اكدها الباحثون الغربيون انفسهم في العديد من مؤلفاتهم.

وبمقدور المرء ان يلقي نظرة على السياق المنهجي للكتاب وعلى تهميشاته لكي ما يلبث ان يتبين له ما يتميز به مؤلف الندوي من تركيز ، وتماسك ، ومتابعة للحدث التاريخي الاساسي ، دون خروج الى تفاصيل جانبية ، وما يلتزم به من توثيق للمعلومات من خلال تثبيت المصادر والمراجع باجزائها وصفحاتها ، ومن شرح المفردات وتحديد الاعلام . اما اللغة فهي سلسة واضحة تسعى الى التوصيل باكبر قدر من الوضوح وتتجاوز التعقيد والاغماض حتى في تعاملها مع النصوص المستمدة من المصادر القديمة . وقد يختلف المرء مع المؤلف في امر واحد وهو انه لم يعتمد منهج التقسيم الموضوعي لاحداث السيرة ومفرداتها ، وانما التزم خط التسلسل الزمني للاحداث رغم تقاطعها النوعي من حين لاخر ، وهو منهج اعتمده معظم الباحثين المعاصرين في السيرة.

(٢) ان تعتمد على خير ما كتب في القديم والحديث ، ذلك ان البحث الجاد هو ، بشكل من الاشكال ، عمل نقدي انتقائي ، لا يستسلم بسهولة لركام الروايات، ولا يغريه احيانا ، التضخم في المادة التاريخية . ومعروف ان السيرة قد عانت الكثير بمرور الزمن ، من الاضافات في الخبر التاريخي ، بموازاة ما كان يحدث في "الحديث" النبوي مما هو معروف ، ومن ثم فان اية محاولة لكتابة السيرة، او اعادة كتابتها بشكل ادق ، يتحتم ان تمارس اختيارا - مسؤولا بطبيعة الحال وليس مجرد هوى عشوائي- لخير ما قدمته المصادر القديمة عن السيرة من روايات موثقة اصيلة ، ولأحسن ما طرحته الدراسات الحديثة من تحاليل ومواقف واستنتاجات قد تعين على اضاءة اشد تركيزا لموضوعات السيرة الخصبة المتشابكة. ولكن تبقى "المصادر الاولى الاصيلة" الاساس الذي يقوم عليه البناء ، لان المادة الاولية التي يقام منها الصرح موجودة هناك ، ويكفي ان نلقي نظرة على قوائم المصادر التي اعتمدها المؤلف لكي يتبين لنا انه لم يكد بترك مصدرا اساسيا الا ورجع اليه ، وان كان اعتماده المحوري

كما هو واضح على "سيرة" ابن هشام و "زاد المعاد" لابن قيم الجوزية ، فضلا عن كتب "الصحاح" [٥].

(٣) ان تحقق تطابقا مدروسا بين مفرداتها كافة وبين ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة الموثقة. ذلك ان المصدرين الاخيرين يحملان الصدق المطلق في تعاملهما مع الواقعة التاريخية ، سواء بالنسبة للمنظور الاسلامي، او حتى بالنسبة للمنظور المنهجي العام الذي أخذ يدرك ، اكثر فاكثر ، مصداقية المعطى التاريخي للقرآن والسنة ، وهذا يعني بالمقابل رفض واستبعاد كل ما يتعارض مع هذين المصدرين من مفردات اقحمت على السيرة عبر الزمن فيما اصابها بالتضخم واضاف اليها الكثير مما لم يكن فيها ابتداء . ولهذا السبب يدعو الندوي الى تجاوز ما يسميه "الاسلوب الموسوعي الحاشد للمعلومات في غير نقد وتحميص " ، فان بعض مؤرخينا القدماء ، اسوة ببعض ادبائنا القدماء ، كان مغرما في سياق نزعة موسوعية جماعة ، الى ان يضيف ويحشد وينوع ، مؤثرا الحصيلة الكمية على حساب التركيز النوعي ، مفتقدا – احيانا – المنهج النقدي ، الانتقائي ، المحص . وهذا المنهج يقتضي اول ما يقتضي الاحالة المنضبطة على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن اعتماد معطيات المناهج الحديثة لما يمكن اعتباره اعادة للامور الى نصابها الحق فيما يتعلق بنسيج السيرة . ويكفي ان يلقي المرء نظرة على هوامش الكتاب لكي تتبين له المساحات الواسعة التي اعتمد فيها المؤلف على المعطيات التاريخية عن السيرة في كتاب الله واحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام.

---

(٥) وانظر على سبيل المثال الصفحات ٩٩- ١٠٠ لمتابعة حديثه عن ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تحميله بالمعجزات التي تضخمت بمرور الوقت دونما توثيق تاريخي كاف . وكذلك الصفحات ١٠٣- ١٠٥ لمتابعة نقده وتفنيده لرواية لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ايام رحلته الاولى الى الشام بالراهب النصراني بحيرى. لكن هذا لا يعني –بداهة- رفض المؤلف لكل الروايات التي تتجاوز المألوف وتستمد مفرداتها من عالم الغيب (انظر مثلا حادثة شق الصدر صفحة ١٠٢).

ومن اجل الا يتصور احد ، او يخطر على باله ، بأن دعوة الندوي هذه قد تقود العمل باتجاه الانسياق وراء الاتجاهات الغربية المعاصرة في دراسة السيرة، فإنه يدعو الى رفض تقليد هذه الاتجاهات او "الخضوع لكتابات المستشرقين واقوال المشككين" [٦] وها هنا بصدد النقطة الاخيرة فإن منهج البحث الغربي، في حقل السيرة بالذات ، قد يتعامل بصيغ نقدية حادة ومبالغ فيها ، تقود بالضرورة الى التشكيك بالكثير من اهم وقائع السيرة ومرتكزاتها، خاصة اذا تذكرنا المنظور المادي للرؤية الغربية ، او العلماني على احسن الاحوال ، هذا المنظور الذي يرفض البعد الغيبي في تعامله مع التاريخ ، او يدفعه الى الظل ، الامر الذي يلحق بالسيرة اذى كبيرا .

اما الموقف (الاسلامي) الاصيل من السيرة ، "الموقف المتوحد الذي تتغلغل في نسيجه مشاعر الاحترام والتقدير والاعجاب والمحبة واليقين، والذي يجد في السيرة تعبيرا متكاملا عن العقيدة التي ينتمي اليها ، فإنه يجد في الدراسات الاستشراقية (الخارجية) عن السيرة ، تغربا عن مسلماته، وخروجا صريحا على بداهاته ، وما يمكن اعتباره محاولات متعمدة لاصابة هذه المسلمات والبداهات بالجروح والكسور ، وهي - لحسن الحظ- لن تفعل فعلها في يقينه ، الا في حالات معينة، بينما نجدها تدفعه في اغلب الحالات واعمها الى الاشمئزاز والنفور. هذا مع ان معالجة واقعة تمتد جذورها الى عالم الغيب، وترتبط اسبابها بالسماء ، ويكون فيها (الوحي) همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم ؛ ويتربى في ظلالها المنتمون على عين الله ورسوله ليكونوا تعبيرا حيا عن ايمانهم ، وقدوة حسنة للقادمين من بعدهم .. واقعة كهذه لا يمكن بحال ان تعامل كما تعامل الجزئيات والذرات والعناصر في مختبر للكيمياء ، او كما تعامل الخطوط والزوايا والمنحنيات والمساحات والكتل على تصاميم المهندسين، بل ولا حتى كما تعامل الوقائع التاريخية التي لا ترتبط بأي بعد ديني اصيل . اننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص ، وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل الخالص وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف،

(٦) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٠٥ – ١٠٨ لمتابعة احدى محاولاته النقدية للمعطيات الاستشراقية.

ومن ثم فإن محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة لا يقود الى نتائج خاطئة حيناً ، ولا تستعصي عليه بعض الظواهر حينا آخر فحسب ، بل انه قد يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الاشكال ، او محاولة لتفحص الجسد البشري كما لو كان في حالة سكون مطلق بعيدا عن تأثيرات الروح وتعقيدات الحياة .

" ان الدين ، والغيب ، والروح ، لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها ، وليس بمقدور الحس او العقل ان يدلي بكلمته فيها الا بمقدار ، وتبقى المساحات الاكثر عمقا وامتدادا بعيدة عن حدود الحواس وتحليلات العقل والمنطق . اننا ، ونحن نتعامل مع هذا المستشرق او ذاك في حقل السيرة النبوية ، يجب ان ننتبه الى هذه المسألة مهما كان المستشرق ملتزما بقواعد البحث التاريخي واصوله . فإنه من خلال رؤيته الخارجية ، وتغرّبه ، وعلمانيّته او ماديته ، يمارس نوعا من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها ، فيصدم الحس الديني ويرتطم بالبداهات الثابتة ، وهو من خلال منظوريه العقلي والوضعي يسعى الى فصل الروح عن جسد السيرة ، ويعاملها كما لو كانت حقلا ماديا للتجارب والاستنتاجات واثبات القدرة على الجدل . وهو في كلتا الحالتين لا يمكن ان يخدم الموقف الاسلامي الجاد من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم او يحتل موقفا جادا منها بوجه من الوجوه "[٧] .

فلم يكن الندوي مبالغا اذن باعتباره هؤلاء الباحثين "من المشككين" الذين يتحتم ان نحذرهم ، ونحن نسعى للافادة من اعمالهم واستنتاجاتهم في هذا الموضوع او ذاك من مواضيع السيرة ، ونحاول -بدلا من ذلك- ان ننطلق من منهج اسلامي اصيل يضع النبوة والغيب موضعهما الحق .

---

(٧) المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات ، لكاتب السطور ، جزء ١ ص١١٦ – ١١٧ من مجلد (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية) الذي اصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج في اطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري (الرياض ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م).

(٤) ان يكون النص ، او الرواية التاريخية ، هو الحكم ، هو مادة البناء الاساسية ..ان يحرر من اية محاولة لتقييده بحكم مسبق ، او اغراقه بالتعليل والتحليل على حساب الواقعة نفسها..ان تترك له حرية التعبير عن ذاته لكي ينطق بما كان فعلا لا بما يراد له ان يكون.

وبما ان النصوص التاريخية للسيرة على قدر كبير من الاستيعاب للدقائق والتفاصيل ، فيما لم يتهيأ بهذا الخصب والغنى لاية سيرة اخرى في تاريخ البشرية ، وذلك بفضل الروافد العديدة التي قدمت هذه التفاصيل ، وغذتها ، وحمتها من الضياع في الوقت نفسه (وبخاصة القرآن الكريم ، ومجاميع الحديث ، وكتب السير والشمائل ، فضلا عن كتب المغازي والمدونات التاريخية).. فان النشاط المحوري في كتابة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومهمته الاساسية تنصب على العرض والترتيب والتركيز ، واعتماد منهج سليم في العمل ، ولغة مناسبة قديرة على التوصيل بشروطه المعاصرة.

وبالتالي فان التأليف في السيرة لا يجابه ، بالضرورة وكما يؤكد الندوي ، صعوبة وغموضا ولا يقتضي افتراضا ولا قياسا ، كما هو الحال في التراجم الاخرى حيث تشح المادة، وتتضارب الراويات ، وتنتشر الفجوات الزمنية ، وتتناقض الشواهد التاريخية . ولعل هذا هو الذي يفسر ما يلحظه القارىء في سياق الكتاب من اعتماد متزايد على النصوص (الحرفية) ، ذلك ان هذه النصوص اذ تستكمل شرطيها الاساسيين وهما الوضوح في العرض والغنى في التفاصيل ، لا تحتاج في كثير من الاحيان الى بيان او اضافة او تعليل.

ورغم ذلك كله فان تقديم صورة مطابقة امر مستحيل ، لا سيما واننا نتعامل هاهنا مع ظاهرة النبوة ذات الارتباطات الغيبية المتشابكة ، فكل ما كتب ، وما سيكتب ، لا يعدو ان يكون محاولات للمقاربة في نهاية الامر.

ولعل هذه المسألة الاساسية ، الى جانب عوامل ثانوية اخرى ، هي التي جعلت المؤلف يتردد حينا من الزمن في الكتابة عن الموضوع لولا ان الحاح المخلصين ، والحاح الحاجة الى مؤلف بالعربية يتعامل مع الاجيال الجديدة على مستوى المنهج واللغة دون وقوع في سلبيات المحاولات المعاصرة ، فضلا عن تمرس الندوي في كتابة الترجمة التاريخية ، هي التي تغلبت في نهاية الامر وجعلت الرجل يقدم على تنفيذ المشروع .

(٥) هنالك ايضا محاولة لتحقيق توازنات بين ثنائيات شتى وبخاصة :

أ- الموضوعية والوجدان الديني .

ب- العلمية والضرورات التربوية.

جـ- التوجه بالخطاب الى المسلم وغير المسلم.

فلا يكفي ، بالنسبة للمسألة الاولى ، ان يكون الباحث في السيرة (موضوعيا) ، اي ان يتعامل معها من الخارج ، بل لابد ان تكون هناك مساهمة على مستوى الذات ... مشاركة وجدانية تقرّب الباحث اكثر فاكثر من صميم حدث تاريخي ليس كالاحداث ، وتجعله ينفعل به ويقدر بالتالي طبيعته التكوينية .. نبضه وايقاعه .. يلمس ، قدر ما يستطيع ، الخيوط التي نسجتها فيعرف مكوناتها [٨] ، وهذا بالنسبة للسيرة بالذات ، ليس نقيض الموضوعية ، بل هو مع الموضوعية ومن شروطها ، فان النبوة ليست تجربة وضعية لا يتحقق فهمها الا بالانفصال والمعاينة من بعيد .. بالعكس .. ان الاندماج، والتأثر ، والمعايشة الوجدانية لهي من ضرورات الادراك والمقاربة، ومن ثم فان المؤرخ المسلم ، المتسلح طبعا بسلاح المنهج العلمي ، اقدر من غير المسلم على خوض غمار التجربة وتقديم بحث اكثر اصالة واعمق تعبيراً عن هذه الواقعة التاريخية المتفردة "لنحاول ان نقرب المسالة اكثر ، ان العمل المعماري الكبير اذا اقيم على اسس خاطئة فانه سيفقد شرطين من شروطه الاساسية : التأثير الجمالي

---

(٨) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٦٨ ، ٢٥٠ – ٢٥٢ ، ٣٢٧ – ٣٢٨ ، ٤١٩ – ٤٥١ لمتابعة بعض نماذج هذا النمط من التوازن.

الذي يمكنه من اداء وظيفته الوجدانية ، والمقومات العلمية التي تمكنه من اداء وظيفته العملية.

"ان البحث في (السيرة) بوجه خاص ، ليستلزم اكثر من اية مسألة اخرى في التاريخ البشري ، هذين الشرطين اللذين يمكن ان يوفرهما منهج متماسك سليم يقوم على اسس علمية موضوعية لا تخضع لتحزب او ميل او هوى ، ويمتلك عناصر جماليته الخاصة التي تليق بمكانة الرسول المتفردة صلى الله عليه وسلم ودوره الخطير في اعادة صياغة العالم بما يرد اليه الوفاق المفقود مع نواميس الكون والحياة . وقد كانت مناهج البحث الغربي (الاستشراقي) في السيرة تفتقر الى احد هذين الشرطين او كليهما ، وكانت النتيجة ابحاثا تحمل اسم السيرة وتتحدث عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحلل حقائق الرسالة ، ولكنها - يقينا- تحمل وجها وملامح وقسمات مستمدة من عجينة اخرى غير مادة السيرة ، وروح اخرى غير روح النبوة ، ومواصفات اخرى غير مواصفات الرسالة.

"ان نتائجها تنحرف عن العلم لانها تصدر عن الهوى ، وتفقد القدرة على مسامتة عصر الرسالة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل تأثيراتهما الجمالية بالمستوى العالي نفسه من التحقق التاريخي ، لانها تسعى لان تخضع حقائق السيرة لمقاييس عصر تنسخ كل ما هو جميل ، وتزيف كل ما هو اصيل ، وتميل بالقيم المشعة الى ان تفقد اشعاعها وترتمي في الظلمة ، وقد تؤول الى البشاعة" (٩) .

وتكاد المسألة الثانية التي يسعى الندوي الى تنفيذها ، ان تكون امتدادا للاولى ، ولكن المعني بالتوازن هذه المرة هو القارىء وليس الموضوع ، فالى جانب ضرورة التزام الجانب العلمي بالبحث في السيرة ، فان هناك ضرورة لا تقل اهمية هي الضرورة التربوية .. ان تقدم السيرة بصيغة عمل ذي رسالة تربوية تملك قدرتها على

---

(٩) المستشرقون والسيرة النبوية للمؤلف جزء ١ ص ١١٧.

التأثير في القارىء وكهربته بتيار الرسالة القادم من السماء [١٠]. وها هنا يمكن ان يكون اعتماد منهج حيوي مؤثر يجانب الجمود والجفاف ، ويتشكل بالمؤثرات التي مرت بنا عبر الفقرات السابقة ، مسألة ضرورية لتحقيق الهدف ، وها هنا ايضا يرفض الندوي ما يسميه "بالتجميل الخارجي او التزيين الصناعي " لان هذا في نهاية الامر نقيض للجمال الباطني ولقوة التأثير وصدقه.

يبقى التوازن الثالث وهو التوجه بالخطاب الى المسلم وغير المسلم ، وهي مسألة محسومة بمجرد ان نتذكر الحاح الندوي على اعتماد مناهج البحث الحديث وادوات التوصيل المعاصرة .. فان هذا بحد ذاته يعتمد جسرا بين مفردات السيرة وبين القارىء الحديث، مسلما كان ام غير مسلم ، ولعل اختيار كتابه هذا لكي يترجم الى الانكليزية، وعدد اخر من اللغات الحية ، انما كان اقتناعا بقدرته على التواصل مع غير المسلمين [١١].

(٦) يرى الندوي ضرورة تسليط الضوء على البيئة التي ظهر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وتشكلت سيرته على ارضيتها ... البيئة ببعديها التاريخي والجغرافي ، وبامتداديها المحلي والعام (ويمكن ان تكون الخرائط الدقيقة التي ارفقت بالكتاب امتدادا لهذه الضرورة). ويكاد يكون مؤلف الندوي ، من بين قلة من المؤلفات الحديثة، التي تناولت السيرة ، من اولى اهتماما ملحوظا بهذه المسألة وخصص لها مساحات واسعة في كتابه[١٢].

---

(١٠) انظر على سبيل المثال الصفحات ١٤٩- ١٥٠، ٢٢١- ٢٢٢، ٢٤١- ٢٤٢ ، ٣٨٥ لمتابعة بعض نماذج هذا النمط من التوازن. وانظر كذلك صفحة ٦ من تقديم الطبعة السابعة ، المزيدة والمنقحة ، للكتاب.

(١١) وانظر الصفحات ٢٦٣ – ٢٦٤ ، ٣١٧ ، ٣٧٣ – ٣٨٣ ، ٤١١ – ٤١٥، وانظر بشكل خاص المحاضرة التي اختتم بها الكتاب بعنوان (فضل البعثة المحمدية على الانسانية ومنحها العالمية الخالدة) ص٤٥٣ – ٤٨٦ والتي سبق وان القاها في ربيع عام ١٩٧٥ بمدينة لكهنؤ بالهند ، وحضرها جم غفير من المسلمين وغير المسلمين ، للاطلاع على تنفيذ الندوي لهذه المسألة في كتابه.

(١٢) انظر الصفحات ٢٣ – ٩٨ حيث يفرش المؤلف تحليله للبيئة الجاهلية لدى ظهور الاسلام عبر حلقاتها الثلاث : العالم، الجزيرة العربية ، ثم مكة ، على هذا المدى الواسع من الكتاب . وانظر –كذلك- الصفحات ١٥٤ –

ورغم ان معطيات السيرة ، في المنظور الاسلامي ، تتجاوز في نهاية الامر حدود الزمن المرحلي والمكان المحدود ، باتجاه كل زمن وكل مكان ، ورغم انها ، في هذا المنظور نفسه ، تشكلت في جانبها الخاص بظاهرة النبوة ، بعلم الله اللدني الشامل الذي يعلو على نسبيات الجغرافيا ومتغيرات الحركة التاريخية ، فانها — اي السيرة — وفي المنظور الاسلامي كذلك - ابنة بيئتها ، ووليدة زمنها وجغرافيتها ، اذ لا يمكن بحال فصل نسيجها عن ارتباطه المتشابك بالبيئة ... بل اننا لو تابعنا مفردات السيرة واحدة واحدة ، لرأيناها لا تكاد تتحول الى (العام) الا بعد اجتيازها (الخاص) وتعاملها معه . وسنكون غير علميين بالمرة لو اننا اغفلنا هذا الارتباط بحجة عالمية الرسالة وديمومتها وعدم تقيدها بالنسبي او المحدود ، وسنقع كذلك في المظنة التي اسرت الفكر الغربي وهي النظرة احادية الجانب تلك التي تتشنج على مساحة محددة من الظاهرة وتتشبث بها دون ان تقلبها على وجوهها لمتابعة الجوانب الاخرى. وهاهنا بصدد السيرة ، فاننا يجب ان نولي اهتماما للوجهين معا : العام والخاص ، المطلق والبيئي، لان اغفال الجانب الاول سيقودنا الى العلمانية وربما الى الرؤية المادية ، ولان اغفال الجانب الثاني سيجرنا الى المثالية بمفهومها التجريدي المنفصل عن الواقع والارضية.

واننا بمجرد ان نلقي نظرة ولو سريعة على اسباب النزول في القرآن الكريم، فلسوف نرى بام اعيننا كيف ان كثيرا من التعاليم والقيم القرآنية ، تخلقت من تفاصيل بيئية صرفة .. من حدث تاريخي عابر او تحد جغرافي محدود .. من تجربة هذا الرجل او ذاك ومن محنة هذه الجماعة او تلك.. من سؤال او اقتراح قد يتقدم به هذا الصحابي او ذاك فيما يعايشونه يوما بيوم وخطوة بخطوة .. لكن هذه التعاليم والقيم لم تأسرها مواضعات البيئة ونسبياتها ، ولا اريد لها ان تكون كذلك ، اذ انها سرعان

---

١٥٨ و ١٧١ – ١٩١ للاطلاع على طبيعة تحليله للبيئة المدنية (في يثرب) ولا ينسى المؤلف ان يعرف القاريء بالملوك والحكام الذين كتب اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله المعروفة يدعوهم فيها الى الاسلام (انظر الصفحات ٢٩٠ –٢٩٩).

ما تجاوزت ظروف تشكّلها الخاصة صوب العام.. صوب المطلق ، بعيدا عن متغيرات الجغرافيا والتاريخ لكي تتعامل مع الانسان في كل زمان ومكان.

ولقد شاء علم الله الذي هو سبحانه اعلم بمن خلق ، الا يصوغ القيم والتعاليم في كتابه الكريم ، وسنة نبيه عليه افضل الصلاة والسلام ، في الفراغ او من الفراغ ، انما جعلها سبحانه تتشكل في البيئة ، في الجغرافيا والتاريخ ، وبتبادل واقعي منظور بين الطرفين لكي تكون اشد حضورا واعمق تأثيرا . وذلك مذهب خطير من مذاهب التربية العقيدية عبر التاريخ ، ونحن نعرف ، على سبيل المثال فحسب ، لماذا لم تتنزل المقاطع القرآنية الخاصة بمعركة احد ..المقاطع المترعة بالقيم والتعاليم ، الا بعد هزيمة احد مباشرة ، وليس بعيدا عنها او بدونها ... وقل مثل ذلك عن حشود كثيفة اخرى من مفردات السيرة.

اذن فان سعي الندوي لاضاءة البيئة التي تشكلت فيها هذه المفردات وتأكيده على تاثيراتها المتشابكة في الحدث النبوي ، امر بالغ الاهمية ، وهو يشكل — اذا اردنا الحق — واحدة من اهم الاضافات التي تقدمها دراسته الى حقل السيرة ، بل واحدة من اهم مبررات اخراجها الى الوجود.

والان ، وبعد الانتهاء من هذه الخطوة الاساسية التي تعتمد معطيات المؤلف نفسه ، دون اي تقحم او اضافة قد تاتي من الخارج ، فان لنا ان نتابع فصول المؤلف نفسه لنرى مدى التطابق ، او بشكل ادق ، طبيعة العلاقة بين العناصر والمفردات الاساسية التي عرضتها المقدمة او نادت بها ، وبين بنيان الكتاب نفسه بمفرداته وتوجهاته العامة ، بمنهجه وموضوعه على السواء . هذا مع ضرورة الا تغيب عن البال واحدة من البديهيات المعروفة في مجال التأليف وهي ان جل المقدمات ان لم تكن كلها، انما تكتب بعد انجاز فصول ومباحث الكتاب نفسه ، وبالتالي فان ما تطرحه من مباديء ومؤشرات عمل منهجية وموضوعية ، سبق وان وجد فرصته

للتحقق في البحث ، وما المقدمة في الحقيقة الا محاولة لتركيز المؤشرات الاساسية للكتاب.

ومن ثم فان لنا الا نسمي محاولة متابعة عناصر المقدمة في الكتاب نفسه سعيا لاختبار مصداقيتها ، وانما بحثا عن صيغ تحققها في صلب الكتاب. ولقد تم التأشير على بعض صيغ التحقق هذه كشواهد فحسب ، وتبقى ضرورة ان نترك للقارىء الجاد عملا يمارسه وهو يتجول عبر فصول الكتاب ، فتلك هي بحق مهمته الاساسية بعد اذ تسلم مفاتيح الدخول وخرائط المعمار الهندسي للكتاب ...

الرسـول (صلى الله عليه وسلم)

فـي

رسـائـل النورسـي

بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الثالث حول فكر سعيد النورسي الذي اقامته مؤسسة الثقافة والعلوم باستانبول في الفترة بين ٢٤ — ٢٦ /١٩٩٥/٩.

ملاحظات تمهيدية

يخصص النورسي للرسول صلى الله عليه وسلم مساحات واسعة في رسائله يتناول فيها بالاضاءة والتحليل جوانب مختلفة من سيرته وسنته.

تتمركز هذه المعطيات في رسائل او مواضع ثمانية خصصت بكاملها للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي : "الرسالة الاحمدية" في الكلمة التاسعة عشرة من "الكلمات" (الصفحات (٢٥٤ — ٢٦٨)،[1] و "اصول في فهم احاديث الساعة وثواب الاعمال" في الكلمة الرابعة والعشرين من "الكلمات" (الصفحات ٣٨٦- ٤٠٢)، و "المعراج النبوي" في الكلمة الحادية والثلاثين من "الكلمات" (الصفحات ٦٦٦- ٧٠٦) و "المعجزات الاحمدية" في المكتوب التاسع عشر من "المكتوبات" (الصفحات ١١١- ٢٨٧) و "منهاج السنة" في اللمعة الرابعة من "اللمعات" (الصفحات ٢٨- ٣٨) ، و "الاخبار بالغيب" في اللمعة السابعة من "اللمعات" (الصفحات ٤٠- ٤٩) ، و "مرقاة السنة وترياق مرض البدعة" في اللمعة الحادية عشرة من "اللمعات" (الصفحات ٨٠- ٩٦)[2] . وشواهد النبوة في القسم الثالث من الشعاع الخامس عشر من "الشعاعات" (الصفحات ٦٥٤- ٦٦٩).

هذا فضلا عن لمسات ومعالجات متفرقة عبر العديد من رسائله يمس فيها الموضوع مسا سريعا[3] .

ان النورسي كما هو واضح من معطياته هذه ، لا يريد ان يكتب سيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ان يحيط علما بسنته ، وانما هو يتجاوز هذا الذي يعني به المؤرخون والمحدثون والذي كادوا ان يشبعوه بحثا ، الى تناول جوانب معينة من السيرة تجيء في سياق رسائله متجانسة مع موضوعاتها ، مؤكدة مراميها . اي انه —بعبارة اخرى— يركز معالجته عند البعد الايماني للسيرة طالما ان هدفه الاساس في رسائله

جميعا هو تأكيد الايمان في مواجهة الكفر والالحاد ، وهذا سيقوده الى كسر القشرة الخارجية للحدث التاريخي والايغال في بطانته الروحية .. تجاوز التشكل المنظور للواقعة الى جوهرها ومغزاها.. وباختصار شديد : مغادرة الظاهر الى الغيب .

وبمقدور المرء ان يلحظ هذا بمجرد ان يجد كيف ان اربعة من الموضوعات الثمانية التي خصصها للحديث عن رسول الله واكبرها مساحة وهي "المعراج النبوي" و "المعجزات الاحمدية" و "الاخبار بالغيب" و "احاديث الساعة" تنطوي على هذا البعد الروحي ، بل انه حتى في "الرسالة الاحمدية" يكاد ينصرف الى هذا البعد ، لا تأسره الوقائع والاحداث ، بقدر ما تهمه المعاني والدلالات الكامنة وراء المنظور .

والنورسي في كتاباته عن رسول الله ﷺ يتجاوز المنهج التاريخي وما يتضمنه من مطالب وتقنيات ، كما انه يتجاوز منهج المحدّثين الى ما يمكن اعتباره منهجا تأمليا استدلاليا برع فيه النورسي فنفذه في رسائله كافة بما في ذلك الاقسام المخصصة للسيرة والسنة . وهو يصرح بمنهجه هذا في مقدمة رسالته عن "المعجزات الاحمدية" ننقله لما ينطوي عليه من اهمية بصدد "المنهج" ليس في سياق السيرة فحسب ، بل عبر مساحات واسعة من رسائله كافة.

يقول "ان اثر عناية ربانية .. قد ظهر اثناء تأليف هذه الرسالة اذكره لقرائها الكرام كي يلتفتوا اليها باهتمام بالغ : كانت الكلمتان (٣١) ، و(١٩)[٤] اللتان تبحثان عن الرسالة الاحمدية مؤلفتين ، لذا لم يرد الى قلبي شيء حول تاليف هذه الرسالة . ولكن اذا بخاطرة ترد الى القلب مباشرة تلح علي بالتأليف في وقت كانت حدة حافظتي قد كلت وخبت جذوتها تحت وطأة المصائب والبلايا ، فضلا عن انني لم اسلك في مؤلفاتي – وفق مشربي – سبيل النقل من الكتب (قال فلان ... قيل كذا) ، وعلاوة على انه ما كان لدي اي مصدر كان من مصادر الحديث الشريف او السيرة المطهرة . على الرغم من هذا قلت : توكلت على الله، وشرعت بتأليف هذه الرسالة متوكلا عليه وحده ، فحصل من التوفيق الالهي ما جعل حافظتي قوية بحيث كانت تمدني امدادا يفوق بكثير حافظة "سعيد القديم"[٥] حتى كتبت نحو اربعين صحيفة –

في سرعة فائقة – خلال ما يقرب من اربع ساعات ، بل كتبت خمس عشرة صحيفة في ساعة واحدة ، وكانت النقول على الاغلب من كتب الاحاديث كالبخاري ومسلم والبيهقي والترمذي والشفا للقاضي عياض وأبي نعيم والطبراني وامثالها . وكان قلبي يخفق ويرجف بشدة كلما ورد حديث شريف خطأ – لما يترتب عليه من اثم – ولكن كتبت الاحاديث بفضل الله سليمة صحيحة ، فادركنا يقينا ان العناية الالهية معنا وان الحاجة الى هذه الرسالة شديدة. ومع هذا فاذا ما ورد في الفاظ الحديث الشريف او في اسم الراوي خطا فالرجاء من الاخوة الاعزاء تصحيحه والصفح عن الخطأ"[٦].

والحق اننا ، كما يقول الاستاذ اديب الدباغ في تقديمه لطبعة عام ١٩٨٧ م من "المعجزات الاحمدية" : "بنظرة متأملة الى مئات الاحاديث التي اوردها هنا تزيدنا ثقة برسوخ قدمه في "علم الحديث" والمامه الجيد بالسيرة ووقائعها ، ورغم انه يستنسخ من الذاكرة .. فاغلب الظن ان صيارفة "الحديث" ونقدته لا يقعون على مغمز يمكن ان يغمزوا به من قناة الرجل ، وان وجدوا فسبحان الذي لا يسهو ولا يخطأ ".

"ونظرة اخرى في تحقيق الاحاديث الواردة في هذه الرسالة القيمة[٧] يزيدنا اطمئنانا الى اننا امام عمل في شأن المعجزات يرسو على قواعد علمية رصينة منهجية لا مطعن فيها"[٨].

المعطيــات

والان ، فلنتابع – بالايجاز المطلوب – معطيات النورسي والمفردات التي يتعامل معها عبر الموضوعات او المقاطع الثمانية التي تنطوي عليها رسائله في "الكلمات" و"المكتوبات" و "اللمعات" و"الشعاعات".

(١) الرسالة الاحمدية

يقسم الكلمة التاسعة عشرة الى اربع عشرة رشحة ، يشير في اولاها الى الادلاء الكبار الذين يعرّفون بالله سبحانه وهم :كتاب الكون ، وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم . ويقف عند الدليل الثاني حيث خصص للدليلين الاخرين مباحث واسعة في اماكن اخرى من رسائله.

وفي الرشحة الثانية يتحدث عن دلائل التصديق برسالته من كتب سماوية سابقة وارهاصات مشهودة ومعجزات شتى ، فضلا عن شخصيته صلى الله عليه وسلم بجوانبها كافة.

وفي الرشحة الثالثة لمحة عن الاهداف الاساسية التي ارسل من اجلها ، متمثلة بالاجابة على اسئلة مؤرقة مثل : من انت ؟ ومن اين؟ والى اين؟

في الرشحات الرابعة والخامسة والسادسة حديث عن التحولات الكبرى التي احدثها الرسول صلى الله عليه وسلم - بهدى الله سبحانه وتأييده – على مستوى التصور والسلوك.

وفي الرشحة الثامنة مقارنة بين قدرته المذهلة على التغيير ونجاحه في تنفيذه على شتى المستويات ، وبين عجز الفلاسفة والوضعيين عن انجاز جزء من مائة مما فعله صلى الله عليه وسلم.

وفي الرشحة التاسعة حديث مدعم بالادلة عن صدقه المطلق في دعوته.

اما في الرشحة العاشرة فانه يشير الى المتغيرات الكونية التي ينبيء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والى يوم الحساب الذي ستنقلب فيه النسب والظواهر والموازين ، والى خطورة هذه الحقائق بالنسبة للحياة البشرية.

وفي الرشحة التالية عود للحديث عن شواهد الصدق فيما يخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اما الرشحتان الثانية عشرة والثالثة عشرة فتقفان عند حرص الرسول صلى الله عليه وسلم وتفانيه ودعائه الموصول من اجل الانسان وخلاصه وفوزه ، لا غرو فهو "شرف نوع الانسان وفريد الكون والزمان، وفخر الكائنات في كل آن".

واما الرشحة الاخيرة ، الاكبر مساحة ، فتفصل القول في كتاب الله باعتباره المعجزة الكبرى لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

والنورسي عبر رشحاته الأربع عشرة يتجاوز المنهج المتبع في التعامل مع حقائق السيرة ومفرداتها ، بل انه لا يكاد يذكر من وقائعها الا النزر اليسير ، فضلا عن انه لا يلتزم — ابتداء — باي معيار زمني.

ان هدفه يتمركز في البحث عن مغزى الحقائق النبوية ، وجوهر المباديء والتصورات التي جاءت بها ، والابعاد الاساسية للمتغيرات التي احدثتها ... وهو من اجل ذلك يلجأ الى التحليل والاستدلال العقلي والوجداني ، ويكثر من ضرب الامثلة ، ويجري المقارنات، معتمدا لغة متميزة بمفرداتها وتراكيبها الجملية .. بصورها وظلالها .. من اجل تقريب المعاني التي يتضمنها الخطاب ، وهي في معظم الاحيان بعيدة عن متناول الحس القريب ، موغلة في عالم الغيب.

ان النورسي هنا وفي جل مقاطعه المخصصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته ، يمضي الى الجانب الاخر من ظاهرة السيرة .. الجانب المغيب البعيد ، وهو

يوشك — احيانا — ان يستدعي كبار المتصوفة ورجالات الخبرة الروحية في الاسلام (كالغزالي والبسطامي والجنيد والكيلاني .. وغيرهم)[٩] لكي يعينوه على هدفه هذا.

ان النورسي لا يكتفي بمشاهدة الجزء المنظور من كتلة الثلج العائمة ، اذا صح التعبير، فهو لا يعدو ان يكون عشر الكتلة ، بينما هناك في الاعماق المغيبة تسعة اعشار لا تراها العين ، لكنها حقيقة مؤكدة كهذا الذي تراه العيون.

ان الرسالة الاحمدية رحلة سريعة في عالم الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم لا تطيل الوقوف في المحطات ، فالذي يهمها ليست التفاصيل وانما الجوهر والمغزى .. المتغيرات الاساسية والوظائف الكبرى.

الرسول دليل الى الله سبحانه .. شهود الاثبات على رسالته .. الاهداف الاساسية والتحولات الكبرى .. القدرة على التغيير .. الصدق المطلق .. المصير البشري والكوني .. الحرص على انقاذ الانسان .. ثم .. كتاب الله باعتباره الشاهد الاكبر على نبوته صلى الله عليه وسلم.

ان هذا المقطع من معطيات النورسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف جل المقاطع الاخرى ، لا يقف عند مسألة واحدة ، او يمحض لموضوع واحد ، وانما هو احاديث عن جوانب وموضوعات شتى ، ولعله لهذا السبب ، كان المقطع الاول عن السيرة في رسائل النورسي كافة .. انه اشبه بمقدمة او تمهيد موجز للمقاطع التالية التي سيمضي كل واحد منها لمعالجة جانب ما من الموضوع.

(٢) احاديث الساعة وثواب الاعمال

في المقطع الذي ينضوي تحت الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين ، يقف النورسي عند الاحاديث الشريفة التي تبحث في "علامات الساعة واحداثها" وفي "فضائل الاعمال وثوابها" والتي ضعفها "عدد من اهل العلم المعتدين بعقولهم ، ووضعوا بعضها في عداد الموضوعات ، وتطرف آخرون من ضعاف الايمان المغرورين بعقولهم فذهبوا الى انكارها"[١٠].

ويشير النورسي الى انه لا يريد ان ينقاشهم في التفاصيل وانما سينبه الى عدد من الاصول التي يمكن الاستهداء بها في فهم هذه الاحاديث الشريفة موضوعة البحث.

وكما ان النورسي تجاوز في المقطع السابق منهج المؤرخين وادواتهم في التعامل مع السيرة ، فانه هنا يتجاوز منهج المحدّثين ، وعلومهم المساعدة ، وادواتهم ، ويلجأ الى اسلوبه في التدليل والمقارنة والاستنتاج ، وهو اسلوب يستدعي الشاهد العقلي حينا ، والشاهد الحسي حينا اخر ، والشاهد الوجداني او الروحي حينا ثالثا . وهو في كل الاحوال يضع قارئه قبالة الحقائق الساطعة كحد السيف، الواضحة وضوح البديهيات .

وهو يقول في الاصل الاول تمهيدا لاصوله وقواعده العامة التي يستهدي بها في فهم تلك الاحاديث "ان الدين امتحان واختبار ، يميز الارواح العالية من الارواح السافلة، لذا يبحث في الحوادث التي سيشهدها الناس في المستقبل بصيغة ليست مجهولة ومبهمة الى حد استعصاء فهمها ، وليست واضحة وضوح البداهة التي لا مناص من تصديقها . بل يعرضها عرضا منفتحا على العقول، لا يعجزها ولا يسلب منها القدرة على الاختبار. فلو ظهرت علامة الساعة بوضوح كوضوح البديهيات ، واضطر الناس الى التصديق ، لتساوى عندئذ استعداد فطري كالفحم في خساسته مع استعداد فطري آخر كالالماس في نفاسته ، ولضاع سر التكليف وضاعت نتيجة الامتحان سدى . فلاجل هذا ظهرت اختلافات كثيرة في مسائل عديدة كمسائل المهدي والسفياني ، وصدرت احكام متضاربة لكثرة الاختلاف في الروايات.

ويقول في الاصل الثاني "ان المسائل الاسلامية طبقات ومراتب ، فبينما تحتاج احداها الى برهان قطعي – كما في مسائل العقائد – تكتفي الاخرى بغلبة الظن ، واخرى الى مجرد التسليم والقبول وعدم الرفض . لهذا لا يطلب برهان قطعي واذعان يقيني في كل مسألة من مسائل الفروع او الاحداث الزمانية التي هي ليست من اسس الايمان ، بل يكتفى بالتسليم وعدم الرفض"[١١].

يمضي النورسي بعد هاتين الاضاءتين الضروريتين لعرض اصوله الاخرى ، فيتحدث عن تسرب الاسرائيليات وبعض اقوال الرواة واهل الكشف او المعاني التي استنبطوها الى متن الاحاديث الخاصة بالموضوع ، كما يشير الى ضرورة التعامل الحذر مع التقنيات البلاغية كالحكايات والامثال والتشبيهات ، والا تؤخذ على عواهنها كحقائق مادية..والحكمة من اخفاء الكثير من التفاصيل عن الامور والوقائع (الزمنية) المغيبة ، ويقف طويلا عند هذه المسألة ويقلّبها على وجوهها فلا يترك صغيرة ولا كبيرة الا عرضها للجدل وساقها الى دائرة الاقتناع.

ويشير النورسي الى ان حصيلة قسم من المسائل الايمانية متوجهة الى امور تتعلق بهذا العالم الضيق المقيد ، والقسم الاخر منها يرنو الى العالم الاخروي الواسع الطليق . وحيث ان قسما من الاحاديث النبوية الواردة في فضائل الاعمال قد عبّر عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم باسلوب بلاغي يناسب الترغيب والترهيب ، فقد ظن من لا ينعم النظر ان الاحاديث الشريفة تحمل مبالغة ! كلا !! يقول النورسي "انها جميعا لعين الحق ومحض الحقيقة وليست فيها مبالغة قط ، من مثل (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما شرب الكافر منها جرعة ماء) .. "[١٢][١٣].

وهو يشير في اصل آخر الى انه كما في القرآن الكريم ايات متشابهات تحتاج الى تأويل او تطلب التسليم المطلق ، كذلك في الحديث الشريف مشكلات تحتاج احيانا الى تفسير وتعبير دقيقين[١٤].

واخيرا فثمّة معيار مقارن لا يقل اهمية وهو ان نظر النبوة والتوحيد والايمان يرى الحقائق في نور الالوهية والاخرة ووحدة الكون لانه متوجه اليها ، اما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانهما يريان الامور من زاوية الاسباب المادية الكثيرة والطبيعة لانهما متوجهان اليها ، فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جدا[١٥] .

(٣) المعراج النبوي

يحتلّ هذا الموضوع الذي تنفرد به الكلمة الحادية والثلاثون مساحة واسعة تقارب الاربعين صفحة (٦٦٦ —٧٠١) ويوليه النورسي اهتماما خاصا لكونه يترتب على اصول الايمان واركانه "فهو نور يستمد ضوءه من انوار الاركان الايمانية" ولهذا السبب بالذات يحذر النورسي من اقامة الحجج لاثبات المعراج للملحدين المنكرين لاركان الايمان "بل لا يذكر اصلا لمن لا يؤمن بالله جل وعلا ولا يصدق بالرسول الكريم ﷺ او ينكر الملائكة والسماوات ، الا بعد اثبات تلك الاركان لهم مقدما" . وبهذا يصير المؤمن الذي تساوره الشكوك والاوهام فيستبعد المعراج ، موضع الخطاب من اجل فائدته وشفائه باذن الله.. ومع ذلك يلاحظ بين آونة واخرى "ذلك الملحد الذي يترقب في موضع الاستماع" وهذا قد يتلقى ايضا جانبا من الخطاب الذي يفيده" [١٦].

وردت لمسات عن حقيقة المعراج في كتابات النورسي ، مبعثرة هنا وهناك ، لكنه في هذه الكلمة يريد ان يلمها ويربطها مع اصل الحقيقة نفسها "لجعلها مرآة تعكس دفعة واحدة كمالات جمال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "[١٧].

لا يلجأ النورسي وهو يتحدث عن (الظاهرة) موغلا في حقائقها وابعادها الى المرويات النبوية ، اللهم الا في مكان واحد[١٨] حيث يورد جزء من حديث اخرجه الامام احمد والترمذي ، كما انه لا يستمد شيئا من المرويات التاريخية في كتب السيرة ، وانما يمضي ، بعد ايراده المقطعين القرآنيين اللذين ترد فيهما الحادثة ،[١٩] الى ما وراء هذا كله لكي يبني على تأسيسات (الحديث) و (التاريخ) تحليله واستنتاجاته معتبرا اياهما ، على ما يبدو ، مسائل متفقا عليها ومقدمات للايغال فيما وراء الوقائع المنظورة بحثا عن الجوهر والمغزى.

يقسم بحثه الى اسس اربعة يعالج في كل منها جانبا من الظاهرة ، ففي اولها يعلل سر لزوم المعراج وحكمة ضرورته ، وفي ثانيها يتحدث عن حقيقة المعراج ، وفي الثالث يقدم الجواب عن حكمته ، اما في الرابع فيعدد ثمراته وفوائده.

وهو في كل الاحوال يشحذ قدرته على المقارنة والتحليل والاستنتاج ، ويكثر من سرد الامثلة التي تقرب الحقائق البعيدة وتخيّلها لقرائه وسامعيه ، كما انه يتفنن في اثارة الاسئلة والاعتراضات ، لكي ما يلبث ان يفككها الى مفرداتها الاساسية ويجيب عنها واحدة واحدة ، وهذا يقوده احيانا الى اعتماد صيغة الحوار المناسبة لتقابل كهذا والتي تتجاوز بالتحليل حالته الفكرية الصرفة.

والنتيجة التي يخلص اليها بصدد سر لزوم المعراج وحكمة ضرورته ، ان هذا العالم مادام شبيها بمملكة في غاية الانتظام ، وبمدينة في غاية التناسق ، وبقصر في غاية الزينة والجمال ، فلابد ان له حاكما ، مالكا ، صانعا! وحيث ان ذلك المالك الجليل والحاكم الكامل والصانع الجميل موجود ، وان هناك – في المقابل – انسان ذو نظر كلي وعلاقة عامة بحواسه ومشاعره مع ذلك العالم وتلك المملكة وذلك القصر ، فلابد ان ذلك الصانع الجليل ستكون له علاقة سامية قوية مع هذا الانسان المالك للنظر الكلي والمشاعر العامة ، ولا شك انه سيكون له معه خطاب قدسي وتوجه علوي.

وحيث ان محمدا النبي الامين صلى الله عليه وسلم قد اظهر تلك العلاقة السامية من بين من تشرفوا بها منذ زمن آدم عليه السلام ، باعظم صورة واجلاها ، بشهادة آثاره ، اي بحاكميته على نصف المعمورة ، وخمس البشر ، وتبديل الملامح المعنوية وتنويره لها ، لذا فهو اليق واجدر من يتشرف بالمعراج الذي يمثل اعظم مرتبة من مراتب تلك العلاقة[٢٠].

ويفسر النورسي حقيقة المعراج بانها "عبارة عن سير الذات الاحمدي وسلوكه في مراتب الكمالات" وهذا يعني "أن آيات الربوبية وآثارها التي جلاها سبحانه وتعالى في تنظيم المخلوقات ، باسماء وعناوين مختلفة ، واظهر عظم ربوبيته بالايجاد والتدبير في سماء كل دائرة من الدوائر التي ابدعها ، كل سماء مدار عظيم لعرش الربوبية ومركز جليل لتصرف الالوهية ، هذه الايات الكبرى والاثار الجليلة ، اطلعها سبحانه وتعالى واحدة واحدة لذلك العبد المخصص المختار ، فعلا به البراق وقطع به المراتب

كالبرق من دائرة الى دائرة ، ومن منزل الى منزل ، ليريه ربوبية الوهيته في السماوات ، ويقابله باخوانه الانبياء فردا فردا، كلا في مقامه في تلك السماوات ، حتى عرج الى مقام (قاب قوسين) فشرفه بالاحدية بكلامه وبرؤيته، ليجعل ذلك العبد عبدا .جامعا لجميع الكمالات الانسانية، نائلا جميع التجليات الالهية، شاهدا على جميع طبقات الكائنات، داعيا الى سلطان الربوبية ، كشافا لطلسم الكائنات"[٢١].

اما حكمة المعراج فانها "من الرفعة والسمو بحيث يعجز الفكر البشري عن ادراكها ، وهي من العمق والغور بما يقصر عن تناولها ، وهي من الدقة واللطف بما يدق عن ان يراها العقل بمفرده"[٢٢] ومن اجل تحقيق المقاربة المرجوة يلجأ النورسي – كعادته – الى اثارة الاسئلة وضرب الامثال وجعل المعنيين بالخطاب كما لو كانوا مستمعين يجلسون قبالته تماما.

باختصار شديد فان حكمة المعراج تبدو في رأي النورسي ، وفق السياق التالي: " ما دام رب العالمين له جمال مطلق وكمال مطلق ، بشهادة آثاره ومصنوعاته ، وان الجمال والكمال محبوبان لذاتيهما ، فمالك ذلك الجمال والكمال اذن له محبة بلا نهاية لجماله وكماله ، وتلك المحبة تظهر بوجوه عدة وانماط كثيرة في المصنوعات ، فيولي سبحانه مصنوعاته حبه لما يرى فيها من اثر جماله وكماله. ولما كان احب المصنوعات واسماها لديه ذوو الحياة ، واحب ذوي الحياة واسماهم ذوو الشعور، واحب ذوي الشعور - باعتبار جامعية الاستعدادات- هو ضمن الانسان ، فاحب إنسان اذن هو ذلك الفرد الذي انكشفت استعداداته انكشافا تاما فاظهر اظهارا كاملا نماذج كمالاته سبحانه المنتشرة في المصنوعات والمتجلية فيها . وهكذا فصانع الموجودات لاجل مشاهدة جميع انواع تجلي المحبة المبثوثة في جميع الموجودات ، في نقطة، في مرآة ، ولاجل اظهار جميع انواع جماله - بسر الاحدية- اصطفى من هو ثمرة منورة من شجرة الخلق ، ومن قلبه ، في حكم نواة قادرة على استيعاب حقائق تلك الشجرة الاساسية، اصطفاه بمعراج — هو كخيط اتصال نوراني بين النواة والثمرة ، اي المبدأ الاول الى المنتهى – مظهرا محبوبية ذلك الفرد الفذ امام الكائنات ، فرقاه الى

حضوره، وشرفه برؤية جماله ، واكرمه بأمره ، واناط به وظيفة جعل ما عنده من حكمة وقدسية تسرى الى الاخرين"(٢٣).

ويعد النورسي لفوائد المعراج خمس ثمرات هي: "رؤية حقائق الاركان الايمانية – كالملائكة والجنة والاخرة وحتى الذات الجليلة- رؤية عين وبصر .. تلقي اسس الاسلام وفي مقدمتها الصلاة.. مشاهدة كنوز السعادة الابدية ودقائق النعيم المقيم ، وتسلم مفتاحها وتقديمه هدية للانس والجن .. رؤية جمال الله سبحانه وتعالى .. واخيرا : تقييم الانسان كائنا جليل القدر، مكرما محبوبا لدى الصانع الجليل"(٢٤).

والجدل حول طبيعة المعراج محسوم في فكر النورسي ، كما هو محسوم في الاسلام، ووجدان المسلمين ، منذ اللحظة التاريخية التي تم الاعلان فيها عن الرحلة الفذة في كتاب الله وعلى لسان رسوله الامين صلى الله عليه وسلم. محسوم باتجاه التوحد الذي يرفض الثنائية بين الروحي والجسدي ، ويتأبى على التجزيء .. التوحد الذي جاء هذا الدين لكي يتعامل بميزانه مع الانسان.

وكل ما اثير بعد لحظة اليقين تلك لا يعدو ان يكون انحرافا ، بدرجة او اخرى ، عن الصراط ، رغم سلامة النية وحسن القصد حينا بعد حين.

لكن يتبقى دائما ما هو اكثر الحاحا والزاما من سلامة النية وحسن القصد ، تبقى رؤية الاسلام المؤكدة التي يتميز بها عن سائر الرؤى والمعتقدات : ان هذا الدين جاء لكي يتعامل مع الانسان ، وكل ما سيتمخض عنه ، كل ما سيعبر عنه ، منبثقا من نسيجه المتفرد او راجعا الى مصبه المتوحد الكبير، لن يكون الا الالتحام الفذ بين الروحي والجسدي، بين الوجداني والعقلي ، وبين المغيب والمنظور.

ولن نكون مسلمين بحق ان خطر على بالنا لحظة ان العالم والكون والوجود ليست سوى وجها واحدا ، بعدا واحدا ، وان ليس ثمة وراء الوجه الواحد اوجه اخرى ، وان وراء البعد ابعاد شتى.

ذلك هو قدرنا كمسلمين ، وتميزنا على سائر اتباع المذاهب والاديان ، وذلك هو ايضا ما اراد النورسي ان يقوله وهو يرحل في مفردات الظاهرة ، ويوغل في دلالاتها ومعانيها.

(٤) المعجزات الاحمدية

الحديث في المعجزات النبوية يطول ، وقد قيل فيه الكثير وكتب الكثير ، ولا يزال ملفه مفتوحا بخلاف الكثير من الامور التي حسمت عن عصر الرسالة.

فالذين يجدون في كتاب الله المعجزة الكبرى ذات الفاعلية الدائمة والحضور المؤكد في الزمن والمكان ، والمصداقية المطلقة التي لاياتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها والتي وعد الله سبحانه بحفظها على مدى الدهر .. الذين يرون في كل آية او مقطع او سورة ، اعجازا قاطعا في هذا الجانب او ذاك من جوانب الحياة والوجود والخبرة البشرية والمصير .. الذين يلمسون في اسلوبياته ومضامينه على السواء اداء يعلو على القدرة البشرية ويتلقى معطياته من فوق ، من لدن حكيم عليم .. الذين يجدون هذا وذاك ويتعاملون معه ويلمسونه صباح مساء ، لا يرون ثمة حاجة للبحث عن معجزات اخرى اصغر حجما ، واقل قدرة على التاثير .. معجزات قد تكفي مرحليتها وعدم استمرار فاعليتها في الزمن والمكان لان تجلعها لا تكاد ترى ازاء الحضور القرآني المدهش ، المتواصل ، الفذ ، المتدفق كالشلال والذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الردّ.

ويزيد هؤلاء تشبثا بموقفهم ان الاسلام ، بخلاف سائر الاديان والرسالات السابقة ، ما اعتمد في مجابهة الخصوم منظومة الخوارق والمعجزات، وانما بالقرآن الكريم وحده تمت المجابهة التي آلت الى ذلك الانتصار الحاسم الساحق ولا تزال .. وان القرآن الكريم نفسه اشار الى هذا واكده في اكثر من مكان :﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**﴾ [٢٥] وتقدم بالبدائل الاكثر ملاءمة لتنامي الوعي

البشري، وتراكم الخبرة بمرور الزمن : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [٢٦] ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[٢٧].

هذا كله حق .. وحق - كذلك- ان يشهد عصر الرسالة ، بين الحين والحين ، ما يمكن اعتباره معجزات تخرق القوانين والسنن المتعارف عليها .. تأييدا لرسول الله ﷺ او افحاما لخصومه ، او تكريما له ، او غيرها من الاسباب والمسوغات التي تجعل معجزات موقوتة كهذه بمثابة اسناد وتعضيد لمعجزة القرآن الكبرى وليس تقاطعا معها او ارتطاما بها ، ناهيك عن ان القرآن الكريم نفسه اشار الى طرف من هذه المعجزات كمشاركة الملائكة في معركة بدر انتصارا للمسلمين المستضعفين في الارض .

والمهم في كل الاحوال ، الا يندفع المرء في موقفه الى ما وراء حدوده المعقولة المنسجمة مع معطيات السيرة نفسها ، والا تأسره الرؤية احادية الجانب فتنسيه، او تحجب عنه، الجوانب الاخرى للظاهرة التي قد تملك هي الاخرى ثقلها ومسوغاتها .

وفضلا عن هذا ، فإن على المرء اذا اراد الا يجانب الانصاف ، ان يلحظ السياق الذي يرد فيه التعامل مع الظاهرة . فإن النورسي المشهود له بالتعامل الجادمع معطيات العقل ، يمضي في نسيج رسائله جميعا لكي يعاين البطانة ، او الخلفية الروحية للظواهر والاحداث ويوغل عمقيا صوب بعدها الغيبي ، فلا غرابة اذن اذا ما خص المعجزات الاحمدية من بين وقائع السيرة ومفردات السنة المزدحمة ، بهذه الوقفة الطويلة ، تماما كما فعل في تعامله مع (المعراج) ومع الاخبار بالغيب واحاديث الساعة ومع جل المقاطع التي افردها للرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم انه -وهذا هو المهم- يقيم رصده للمعجزة على الاحاديث الصحيحة التي اخبرت بها وتحدثت عنها ، وليس على اقوال القصاص والرواة او الاخباريين والمؤرخين . كما انه لا يلجأ الا في حالات محدودة الى حديث ضعيف ، وحينذاك فإن من حق القارىء ان يرفض المعجزة ما دامت لم تنقل الينا بالمتفق عليه من مرويات السنة الشريفة

. اما وقد اعتمد النورسي في معظم الحالات ، معايير رجال الحديث ، فإن لنا ان نسلم بمعطياته والا نعتبرها في حالة تقاطع مع الظاهرة القرآنية ، بل ان نتأولها ، اذا اقتضى الامر ، من اجل ان تصب جميعا في بحر الصدق المطلق للرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم ، وان نتذكر - دائما- كما يشير النورسي نفسه ، ان العديد من الخوارق لم يكن معجزات بقدر ما هو كرامة او كما يسميه "إكرام إلهي وضيافة رحمانية"(٢٨).

والمهم مرة اخرى ، ان نلحظ السياقات التي يتم من خلالها التعامل مع المعجزة والا نجعلها هدفا بحد ذاته ، والا يجيء تعاملنا معها على حساب الظواهر الاخرى حيث تبدو القيمة العليا لشخصية الرسول المعلم عليه افضل الصلاة والسلام ، وعبر نسيج سيرته .. في المعاناة ، والواقعية ، والاخذ بالاسباب ، التي تم التعامل من خلالها مع التحديات والاحداث ، وحيث لم تكن المعجزات النبوية كافة ، خارج الظاهرة القرآنية ، سوى مساحات محدودة جدا في بحر واسع ودائرة كبرى ، كان فيها الفعل الايماني الواقعي ، والمعاناة البشرية ، والحيطة ، والتشبث بالاسباب ، الحكم الفصل في تقرير المصائر وتشكيل الاحداث ، وستارا لقدر الله في العالم والتاريخ.

مهما يكن من امر فان النورسي في مكتوبه التاسع عشر عن المعجزات الاحمدية ، وانسجاما مع منظوره الماورائي للظواهر والأحداث ، يخصص للمعجزات النبوية مساحة كبيرة تتجاوز المائة والسبعين صفحة (١١١- ٢٨٧) ، فهي والحالة هذه اكبر مساحة خصصها النورسي لموضوع من موضوعات السيرة والسنة الشريفة . ولعل الكم الكبير الذي وقع عليه وهو يتابع الظاهرة ، الجأه الى فرش هذه المساحة الكبيرة ، فهو يتعامل مع اكثر من ثلاثمائة معجزة من معجزات عصر الرسالة ، يختار لكل مجموعة منها عنوانا موحدا كما هو شانه في التقسيمات الفنية لرسائله . فهناك تسعة عشرة (اشارة) يخصص الاشارات الاربع الاولى منها لتقديم الضوابط والاضاءات والمعايير الضرورية في التعامل مع (المعجزة) ، وهذه الاشارات –اذن– على درجة كبيرة من الاهمية لانها تزيل الكثير من اللبس ، وترد على الظنون والاوهام

والشبهات ، وتحدد الصيغ الاكثر توازنا في معالجة الظاهرة فلا تجنح او تنحرف ذات اليمين او ذات الشمال .

ها هنا بمقدور المرء ان يتلقى المزيد من مسوغات انكباب النورسي على المعجزات الاحمدية و تخصيصه لها هذه المساحة الواسعة ، فهو لايتقبلها على عواهنها ، ولا يعاملها كما لو كانت على قدر واحد من الاهمية ، او نمطا واحدا ... وانما هو يعتمد اسلوبا نقديا انتقائيا ، وفق الضوابط والمعايير المعتمدة ، لكي لا يتبقى قبالة القارىء الا ما هو مقبول وفق تلك الضوابط والمعايير.

فالنورسي يرى في المعجزة بحد ذاتها تصديقا من رب العالمين لدعوى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، اي كأن المعجزة تقوم مقام قول الله سبحانه : صدق عبدي فاطيعوه.[٢٩] غير ان دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبراهين نبوته لا تنحصر في معجزاته ، بل يرى المدققون ان جميع حركاته وافعاله واحواله واقواله واخلاقه واطواره وسيرته وصورته ، كل ذلك يثبت اخلاصه وصدقه . ولقد صدق بنبوته مئات الالوف من الناس المتباينين في الفكر بمئات الالوف من الطرق . والقرآن الكريم وحده يظهر الفا من البراهين على نبوته صلى الله عليه وسلم عدا اعجازه البالغ اربعين وجها[٣٠].

وهو يصنّف دلائل نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم الى قسمين ، اولهما : الحالات التي سميت بالارهاصات ، وهي الحوادث الخارقة التي وقعت قبل النبوة ووقت الولادة . وثانيهما : دلائل النبوة الاخرى التي تنقسم الى قسمين ، احدهما الخوارق التي ظهرت بعده تصديقا لنبوته ، وثانيهما الخوارق التي ظهرت في فترة حياته المباركة ، وهذا ايضا قسمان ، اولهما : ما ظهر من دلائل النبوة في شخصه وسيرته وصورته واخلاقه وكمال عقله . والثاني : ما ظهر منها في امور خارجة عن ذاته الشريفة ، اي في الافاق والكون ، وهذا ايضا قسمان : قسم معنوي وقرآني ، وقسم مادي وكوني وهذا الاخير قسمان ايضا ، اولهما المعجزات التي ظهرت خلال فترة الدعوة النبوية ، وهي اما لكسر عناد الكفار او لتقوية ايمان المؤمنين . وثانيهما الحوادث التي اخبر عنها صلى

الله عليه وسلم قبل وقوعها – بما علمه الله سبحانه – وظهرت تلك الحوادث وتحققت كما اخبر[٣١].

والنورسي يذكر بانه اذا كانت جميع احوال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم واطواره دليلا على صدقه وشاهدا على نبوته ، الا ان هذا لا يعني ان تكون جميع احواله وافعاله خارقة للعادة ، ذلك لان الله سبحانه قد ارسله بشرا رسولا ، ليكون باعماله وحركاته كلها اماما ومرشدا للبشر كافة ، وفي احوالهم كافة .. فلو كان في جميع افعاله خارقا للعادة ، خارجا عن طور البشر ، لما تسنّى له ان يكون اسوة يقتدى به ، لذا ماكان يلجأ الى اظهار المعجزات الا بين حين وآخر ، عند الحاجة، اقرارا لنبوته امام الكفار المعاندين . ولما كان الابتلاء والاختبار من مقتضيات التكليف الالهي ، فلم تعد المعجزة مرغمة على التصديق – اراد الانسان ام لم يرد – لان سر الامتحان وحكمة التكليف يقتضيان معا فتح مجال الاختيار امام العقل من دون سلب الارادة منه[٣٢].

وهو يشير الى ان الاثار المنقولة ، ان كانت متواترة ، فهي قطعية الثبوت وتفيد اليقين. هذا التواتر الذي يجيء بصيغتين اولاهما التواتر الصريح او اللفظي ، وثانيتهما التواتر المعنوي ، وهو قسمان اولهما سكوتي ، اي ابداء الرضا بالسكوت عنه ، وثانيهما معنوي وهو اتفاقهم على القدر المشترك بين اخبارهم وان كانت الروايات متنوعة .

وهكذا فالقسم الاعظم مما نقل الينا من دلائل النبوة ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم هو بالتواتر الصريح او المعنوي او السكوتي ، وقسم منها بخبر الاحاد ، الا انه ضمن شروط معينة ممحصة اخذ وقبل من قبل ائمة الجرح والتعديل من اهل الحديث النبوي ، فاصحبت دلالته قطعية كالتواتر . ولا شك ، اذا ما قبل بصحة خبر الاحاد محدثون محققون من اصحاب الصحاح الستة وفي مقدمتهم البخاري ومسلم ، فلا ريب اذن في قطعيته[٣٣].

وثمة اخيرا وليس آخرا ما يود النورسي ان ينبه عليه بصدد الظاهرة التي يتعامل معها : ان احوال الرسول صلى الله عليه وسلم واوصافه قد بينت على شكل سيرة وتاريخ ، الا ان اغلب تلك الاحوال والاوصاف تعكس بشريته فحسب ، اذ ان الشخصية المعنوية لتلك الذات النبوية المباركة رفيعة جدا وماهيته المقدسة نورانية الى حد لا يرقى ما ذكر في التاريخ والسيرة من اوصاف واحوال الى ذلك المقام السامي ، ولا يملك الاحاطة الكاملة بحقيقة كمالاته .. فانى لهذه الشخصية المباركة ان تنحصر في حالة ظاهرية او ان تظهرها بجلاء حادثة بشرية ؟ فلئلا يقع احد في غائلة الخطأ يلزم من يسمع اوصافه ﷺ البشرية الاعتيادية ان يرفع بصره دوما عاليا لينظر الى ماهيته الحقيقية والى شخصيته المعنوية الشامخة في قمة مرتبة الرسالة، والا اساء الادب ووقع في الشبة والوهم[٣٤].

(٥) منهاج السنة

في هذه الرسالة التي تتضمنها اللمعة الرابعة من اللمعات (ص٢٨ —٣٨) والتي ارتأى النورسي تسميتها بـ (منهاج السنة) ، معالجة موجزة لمسألة محبة آل البيت رضي الله عنه وتطورها في مراحل تالية الى الانقسام المعروف بين اهل السنة والجماعة وبين الشيعة ، وهي مسالة ذات بعد تاريخي يخرج زمنيا عن اطارات السيرة والسنة النبوية الشريفة ، ولكنها بسبب من تجذرها هناك ، في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يمكن اعتبارها اضافة اخرى يغنى بها النورسي معطياته عن الموضوع.

يستشهد النورسي بالايتين الكريمتين (١٢٨ —١٢٩) من سورة التوبة :﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ {١٢٨} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ ، وبالاية (٢٣) من سورة الشورى ﴿ **قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾ .

ينتقل النورسي في ضوء هذه الايات من العام الى الخاص ، من رأفة الرسول صلى الله عليه وسلم بامته كلها وشفقته عليها ورحمته بها ، الى محبته لال البيت ، وشفقته عليهم ، ورحمته بهم ، ودعوة المسلمين جميعا الى التأسي به ، وهو يضرب مثلا على مكانة الحسن والحسين رضي الله عنهما من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم ما يلبث النورسي ان يغادر عصر الرسالة موغلا في عصر الراشدين رضي الله عنه والفترات التي تليه ، حيث اخذت بدايات الانقسام تطل برأسها ، فيما يخرج بنا عن الموضوع فلا مسوغ لمتابعته .وهو يرى ان المنهاج المطلوب ازاء هذا كله هو عدم الافراط والتفريط والاستقامة على الحد الوسط الذي اختاره اهل السنة والجماعة في محبة آل البيت ، دونما غلو او انحراف تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو سائر الاطراف الى تجاوز النزاع "الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه ، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه"[٣٥].

(٦) الاخبار بالغيب

في صفحات عشر تنطوي عليها اللمعة السابعة (ص٤٠ — ٤٩) يتحدث النورسي عن سبعة انواع من اخبار الايات الكريمة بالغيب ، وما يجعلها ذات علاقة بالسيرة انها تجيء تعقيبا على الايات الكريمة (٢٧- ٢٩) من سورة الفتح التي تتحدث عن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدخول المسجد الحرام وتصديق الله سبحانه لها بالحق، وعن ظهور الاسلام على الدين كله ، وعن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه (رضوان الله عليهم).

ويجد النورسي نفسه هنا قبالة التاريخ ، اي قبالة احداث السيرة التي تنبيء بها وتتحدث عنها الايات المذكورة ، وازاء الجيل الفريد الذي رباه الرسول المعلم عليه افضل الصلاة والسلام.

ولا يجد النورسي نفسه ملزما بالرجوع الى مصادر السيرة او اسباب النزول . انه – كشأنه في معظم الحالات- يستمد تحليله من خزينه المعرفي وذاكرته الحادة .

وهو يتحدث في رسالته الموجزة هذه عما يسميه بوجوه اعجازية عديدة : الرؤيا التي تخبر اخبارا قاطعا بفتح مكة قبل وقوعه بسنتين .. صلح الحديبية الذي وان بدا ظاهرا انه ليس في صالح المسلمين وان لقريش ظهورا عليهم الى حد ما ، الا انه سيكون بمثابة فتح معنوي مبين ومفتاحا لبقية الفتوحات .. دخول البيت الحرام والطواف حول الكعبة بأمان تام دونما خوف ، رغم ان معظم قبائل الجزيرة العربية حوالي مكة ، وغالبية قريش اعداء للمسلمين. وهو اخبار ينطوي ايضا على حقيقة ان الجزيرة ستدين للمسلمين بالطاعة وستكون قريش في حظيرة الاسلام ويعم الامن والامان .. ظهور الاسلام على الاديان كلها ، علما ان النصرانية واليهودية والمجوسية التي يعتنقها مئات الملايين من الناس ، كانت اديانا رسمية لدول كبرى كالصين وايران وروما ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يظهر بعد ظهورا تاما على قبيلته نفسها .. تقويم جيل الصحابة الكرام بانهم افضل بني الانسان بعد الانبياء عليهم السلام ، وما ستتميز به طبقات الصحابة في المستقبل من صفات ممتازة مختلفة خاصة بهم .. الاخبار عن اوصاف الصحابة الواردة في التوراة والانجيل وهي في حكم الغيب بالنسبة لرسول امي صلى الله عليه وسلم.

وثمة سؤال مهم يثيره النورسي في سياق تعامله مع الآيات المذكورة : ان صحابة الرسول الكريم وهو حبيب رب العالمين ، قد غلبوا امام المشركين في نهاية معركة احد وبداية معركة حنين ، فما الحكمة في هذا ؟

وما يلبث ان يجيب قبل ان يمضي لمتابعة الدلالات التاريخية لآيات سورة الفتح : انه حينذاك كان بين المشركين كثيرون من امثال خالد بن الوليد ممن سيكونون في المستقبل مثل كبار الصحابة في ذلك الزمان ، فلأجل الا تكسر عزتهم كليا ، اقتضت حكمة الله ان تكافأهم مكافأة عاجلة لحسناتهم المستقبلية ، بمعنى ان صحابة في الماضي غلبوا امام صحابة في المستقبل ، لئلا يدخل هؤلاء – اي صحابة

المستقبل- خوفا من بريق السيوف بل شوقا الى بارقة الحقيقة ، ولئلا تذوق شهامتهم الفطرية الهوان كثيرا [٣٦] .

وقد لا نتفق مع النورسي في استنتاجه هذا ، فحكمة الله سبحانه من هزيمة المسلمين في احد وبدايات حنين اكبر بكثير من مصائر الاشخاص وهي -كما حدثنا القرآن الكريم نفسه- ترتبط بمسألة السنن التاريخية ، او ما يسمى بقوانين الحركة التاريخية التي شاءت ارادة الله سبحانه ان ينهزم المسلمون هنا وهناك لكي يكونوا اكثر وعيا بهذه السنن والتزاما بمطالبها اذا ارادوا حقا ان ينتصروا على اعدائهم وان يكونوا الاعلون في الارض .

(٧) مرقاة السنة وترياق مرض البدعة

هذا هو الموضوع الاخر الذي يخصصه النورسي لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته[٣٧] ، وهو يجيىء هنا بمثابة دعوة مخلصة للالتزام بالسنة وعرض للمسوغات والنتائج التي تتمخض عنه.

تبدأ هذه الدعوة بشاهدين من كتاب الله : ﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾[٣٨] ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾[٣٩].

ومن بين مئات المسائل التي يتضمنها هذان الشاهدان ، يقف النورسي عند احدى عشرة مسألة منها ، وهو في تناوله هذه المسائل يستشهد بكتاب الله ، ويستدعي كذلك عددا من الاحاديث النبوية ، كما يلجأ مرتين الى بعض مقولات احد الائمة الربانيين وهو الامام المجدد احمد السرهندي الفاروقي (٩٧١- ١٠٣٤هـ) . لكن المساحات الأوسع يغطيها تحليله ومقارناته واستدلالاته المستمدة حينا من مقولات العقل والمنطق ، وحينا آخر من خبراته الشخصية .

يؤكد النورسي على القيمة العالية لاتباع السنة المطهرة وبخاصة عند فساد الامة واستيلاء البدع وغلبتها .. اننا هنا بازاء العنوان نفسه ، فإنه ليس ثمة من دواء لمرض البدعة كالالتزام المخلص الصادق بالسنة : "ان الاتباع المباشر للسنة المطهرة يذكر بالرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ، وهذا التذكر ينقلب الى استحضار الرقابة الالهية ، بل تتحول في الدقائق التي تراعى فيها السنة الشريفة ابسط المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية ، كآداب الاكل والشرب والنوم وغيرها ، الى عمل شرعي وعبادة مثابة عليها .. وعلى هذا فإن بمقدور المرء ، - كما يستنتج النورسي- ان يجعل عمره كله مثمرا ومثابا عليه.[40] وهو يشبه كل مفردة من مفردات السنة بمؤشر البوصلة الذي يبين اتجاه الحركة في السفن فلا تضل المسار.. والمصباح الذي يضيء مالا يعد ولا يحصى من الطرق المظلمة [41] . ويقف عند الآية الكريمة:﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[42] فيراها اعلانا قاطعا عن مدى اهمية اتباع السنة ومدى ضرورتها ، وبدون هذا الاتباع فليس ثمة محبة بين العبد وربه "اجل ، ان من يؤمن بالله يطعه ، ولا ريب ان اقصر طريق اليه واكثرها قبولا لديه وازيدها استقامة –ضمن طرق الطاعة المؤدية اليه – لهى الطريق التي سلكها وبينها حبيب الله صلى الله عليه وسلم.." [43] .

وليس ثمة في السنة النبوية مفردة لا تنطوي على ادب ونور عظيم . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : "ادبني ربي فأحسن تأديبي"[44] "نعم فمن ينعم النظر في السيرة النبوية ويحط علما بالسنة المطهرة ، يدرك يقينا ان الله سبحانه وتعالى قد جمع اصول الآداب وقواعدها في حبيبه صلى الله عليه وسلم. فالذي يهجر سنته المطهرة ويجافيها فقد هجر منابع الادب واصوله ، فيحرم نفسه من خير عظيم ، ويظل محروما من لطف الرب الكريم ، ويقع في سوء ادب وبيل " [45] .

والسنة كما يؤكد النورسي من انه شاهده شخصيا وتذوقه بنفسه عبر الف تجربة وتجربة "افضل دواء وانفعه للامراض الروحية والعقلية ولا سيما الاجتماعية منها" حيث عجزت كل الحلول الفلسفية والوضعية عن معالجتها [46] .

والنورسي يتحفظ ، بسبب من رؤيته الواقعية المرنة ، على امكان الاتباع الفعلي الكامل لمفردات السنة ، اللهم الا لأخص الخواص "ولكن يمكن لكل واحد الاتباع عن طريق النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول . ومن المعلوم انه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب . اما السنن المستحبة في العبادة فتركها واهمالها ، وان لم يكن فيه اثم ، الا انه ضياع لثواب عظيم، وفي تغييرها خطأ كبير . اما السنن النبوية في العادات والمعاملات فانها تصيّر العادة عبادة رغم ان تاركها لايلام ، الا ان استفادته تقل وتتضاءل من نور الاداب الحياتية لحبيب الله صلى الله عليه وسلم "[٤٧].

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بشهادة الاية القرآنية له :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٤٨]. ووصف عائشة رضي الله عنها : "كان خلقه القرآن"[٤٩] ، انما هو "المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الاخلاق ، وهو افضل من تمثلت فيه تلك المحاسن ، بل انه خلق فطرة على تلك المحاسن" . وهكذا تصير كل افعال هذا النبي العظيم واقواله واحواله وحركاته نموذج اقتداء للبشرية[٥٠].

وباختصار لا اختصار بعده فانه صلى الله عليه وسلم "قد خلق في افضل وضع وأعدله ، وفي اكمل صورة واتمها ، فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة ، وسيرته الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا وبوضوح تام" حيث لا افراط ولا تفريط امتثالا لقوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٥١].

(٨) شواهد النبوة

في القسم الثالث من الشعاع الخامس عشر الذي يحمل عنوان (الحجة الزهراء) يتحدث النورسي في خمس عشرة صفحة من (الشعاعات) (٦٥٤ — ٦٦٩) عن شواهد النبوة وهو لا يعطي لهذا القسم عنوانا ، كما هو الحال في عدد من الموضوعات التي يعالجها ، ولكنه ذكر بانه درس القي في (المدرسة اليوسفية الثالثة) ، ويشير في تقديمه له بانه اضطر الى كتابته بدافع من اسباب ثلاثة لم يشأ ان يكشف النقاب عنها لحظة كتابة القسم و"بتنبيه معنوي وارد من جملة:(اشهد ان محمدا رسول الله) ،

وبفيض نور الاية الكريمة التي في ختام سورة "الفتح" والتي اظهرت خمس معجزات غيبية ، وهي قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾(٥٢) ..."(٥٣).

كما ان النورسي ، لغرض الاستزادة من الموضوع وتوثيق مفرداته بالحجج المسندة بالدلائل يحيل مستمعه (او قارئه) الى رسالة "المعجزات الاحمدية" (التي سبق الحديث عنها) والى الحزب النوري المؤلف باللغة العربية.(٥٤) ولذا فانه سيكتفي هنا بالاشارة اليها باختصار شديد(٥٥).

يبني النورسي موضوعه على "اشارتين" وخمس عشرة "شهادة". وتجيء الاشارة الاولى بمثابة تأكيد على ضرورة "النبوة" المحمدية لهذا العالم . اما الاشارة الثانية التي جعلها النورسي ضمن اوراده اليومية ، فيوجز فحواها بالفقرة التالية : "محمد رسول الله صادق الوعد الامين ، بشهادة ظهوره دفعة مع اميته باكمل دين ، واسلامية وشريعة ، وبأقوى ايمان واعتقاد وعبادة ، وبأعلى دعوة ومناجاة ، وبأعم تبليغ واتم متانة ، خارقات مثمرات لا مثيل لها"(٥٦).

ما يلبث النورسي ان يستعرض جملة من شواهد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائلها . تستمد الشهادة الاولى حيثياتها من عدد من "حالات" الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، فهو ، مثلا ، "مع كونه اميا" لم يتعلم القراءة والكتابة ، اتى بدين اوقع عقلاء اربعة عشر قرنا وفلاسفتها في حيرة واعجاب وانبهار ، وفاق الاديان السماوية".

و"كذا الاسلام النابع من اقواله وافعاله وحالاته وارشاده ثلاثمائة وخمسين مليونا من البشر في كل وقت ، مربيا ارواحهم ، مزكيا انفسهم ، ومنورا عقولهم ، ودفعهم الى الرقي المعنوي ، وهذه حالة لا مثيل لها" و "اتيانه بشريعة غراء عظيمة بحيث ادارت بقوانينها العادلة خمس البشرية طوال اربعة عشر قرنا من الزمان ادارة حققت له

الرقي المادي والمعنوي ، وهذه حالة لا مثيل لها " و"ظهوره بايمان راسخ واعتقاد جازم بحيث يستلهم منه جميع اهل الحقيقة في كل وقت ، ويصدقون بالاتفاق على انه في ارفع درجة واسمى مرتبة، فضلا عن عدم ايراث مخالفيه واعدائه ومعارضيه في ذلك الوقت — رغم كثرتهم - اية شبهة ولا وسوسة ولا شك قط ، مما يبين بجلاء انه لا مثيل له في قوة الايمان ايضا" كما انه "اظهر عبودية وعبادة عظيمتين بحيث وحد المبدأ والمنتهى من دون تقليد لاحد ، ملاحظا ادق اسرار العبادة ومراعيا لها حتى في اشد الاوقات اضطرابا ، واداها على اتم وجه واتقنه ، وهذه حالة لا مثيل لها" .. كما ان احدا " لم يبلغ ما بلغه من معرفة الله ، وهي حالة لا مثيل لها قط" هذا فضلا عن انه "دعا الناس الى الدين دعوة ملؤها الثقة ، وبلغ رسالته بشجاعة واقدام بحيث ان معارضة قومه وعمه والدول الكبرى في العالم ، واتباع الاديان السابقة وعدائهم ، لم ينل منه الخوف ولا الاحجام قطعا بل تحدى العالمين وظهر على الجميع .. وهي حالة لا مثيل لها".

وهكذا فان "مجموع الحالات الخارقة التي لا نظير لها ، شهادة في منتهى القوة على صدقه صلى الله عليه وسلم وثبوت دعوته"(٥٧).

اما الشهادة الثانية فتستند الى حقائق اركان الايمان وصوابها ودلالتها القاطعة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه(٥٨).

واما الشهادة الثالثة فتقوم على كماله الخلقي الذي تدل عليه وتشير اليه مئات المفردات والوفها(٥٩).

والشهادة الرابعة هي القرآن الكريم نفسه فهو "يشهد ببيانه المعجز ، وبحقائقه وحججه التي لا تعد ولا تحصى ، على رسالته وصدقه صلى الله عليه وسلم"(٦٠) .

واما الشهادات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة ، فتمضي للتعامل مع حشد آخر من دلائل النبوة ، كعلاقته بالله سبحانه وصدق توجهه اليه ، وارهاصات

"التاريخ" ووقائعه وخوارقه التي سبقت البعثة (من مثل ارسال الطير الابابيل لترمي جيش ابرهة الذي اتى لهدم الكعبة ، بحجارة من سجيل قبيل ولادته صلى الله عليه وسلم وغيرها من الحودات التي اخبرت عن نبوته قبل بعثته) " وكذا المستقبل، اي الحوادث التي وقعت بعد وفاته واخبر عنها ، وهي كثيرة جدا ومتنوعة جدا ، من مثل اخباره باستشهاد سيدنا عثمان رضي الله عنه ... وما شابهها من معجزاته في اخباره الغيبي الذي ظهر في ثمانين حادثة ، مما نقل الينا نقلا صحيحا استنادا الى كتب السير والتاريخ التي ذكرتها بالتفصيل"(٦١) .

وتشير الحلقات التاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ، الى شهادات اربعة طوائف ممن عايشوا الرسول صلى الله عليه وسلم او تعاملوا مع رسالته بالصدق المطلق بالرسالة والرسول ، وهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم) ، والاف المجتهدين والائمة الاعلام والعلماء المحققين والفلاسفة الدهاة .. وصولا الى (رسائل النور) التي هي "واحدة من اولئك الشهود الصادقين في هذا العصر الذين لا يحصون ولا يعدون" ، فضلا عن شهادة الاقطاب واصحاب الكرامات ورجالات الخبرة الروحية المتألقة في تاريخ الاسلام(٦٢) .

وتقدم الشهادة الثالثة عشرة ، حججا قاطعة مستمدة من تأكيد مشاهير البشر في الازمنة الماضية على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي مقدمتهم الانبياء الكرام (عليهم السلام) ، فضلا عن "العارفين والكهان ... والروحانيين .. وكذا كثرة من المخبرين " الذين ارهصوا جميعا بمجيئه وبصدق رسالته (٦٣) .

والشهادة الرابعة عشرة هي "شهادة الكون القوية" : "..فهذا الكون كما انه يدل على صانعه .. الذي اوجده والذي يديره وينظمه .. فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود من يعبر عما في هذا الكتاب الكبير من معان، ويعلم ويعلّم المقاصد الالهية من وراء خلق الكون.. وتحولاته وتبدلاته .. ويجيب عن الاسئلة المحيرة .. من اين تأتي الموجودات والى اين المصير.. انه يقتضي داعيا عظيما ، ومناديا صادقا ، واستاذا محققا ، ومعلما بارعا . فالكون من حيث هذا الاقتضاء يدل ويشهد شهادة قوية وكلية على

صدق النبي الكريمﷺ وصوابه الذي هو افضل من اتم هذه الوظائف والمهمات ، وعلى كونه افضل واصدق مبعوث لرب العالمين..."(٦٤).

اما الشهادة الخامسة عشرة والاخيرة فتنطوي على جملة من الادلة والشهادات:

"اننا نشاهد بأعيننا في هذا الكون ان من عادة الربوبية الجارية في كل آن بالعدالة والحكمة والعناية ، حماية الابرار وتأديب الكذابين الفاسدين ، نشاهدها ضمن تصرفاته المنتظمة جل جلاله . فبمقتضى افعاله الرحمانية انزال القرآن المعجز البيان على محمد صلى الله عليه وسلم ... وحمايته تحت رأفته الشفيقة.. في اخطر اوضاعه .. وتوفيقه .. وادامة دينه بجميع حقائقه ، وتتويج هامة الارض والبشرية باسلامه واعلاء مقامه الى ارفع مقام .. وكذا نشاهد من حيث افعال ربوبيته جل وعلا ان متصرف هذا العالم ومدبر شؤونه جعل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم شمسا معنوية للكون .. بدد بها جميع الظلمات ، مظهرا بها حقائق الكون النورانية..

وجعله صلى الله عليه وسلم احسن قدوة واعظم مرشد ... للبشرية قاطبة ، بدلالة آثاره في الحياة الاجتماعية والمعنوية ، وجعل البشرية محتاجة الى دينه وشريعته وحقائقه التي اتى بها الاسلام ، حاجتها الى الرحمة والحكمة والعدالة والغذاء والهواء والماء والضياء .. كل هذه الحجج القاطعة شهادة سامية على الرسالة المحمدية"(٦٥).

الخاتمة

والان ، فاننا اذا ما رجعنا ثانية الى المادة التي يقدمها النورسي عن عصر الرسالة في المقاطع التي عالجها هذا البحث ، فاننا سنجدها تتمركز في سياقين اساسيين يعالج اولهما واكبرهما مساحة ، الموضوعات التالية :

(١) المعجزات (٢) المعراج (٣) الاخبار بالغيب (٤) احاديث الساعة وثواب الاعمال .

وهي موضوعات غيبية لا تتعامل مع الحدث التاريخي المنظور للسيرة وانما تمضي الى جذوره ودلالاته الموغلة فيما وراء عالم الشهود.

اما السياق الثاني فيتناول — بايجاز — جوانب متفرقة من المعطى النبوي ، سيرة وسنة ، من مثل :

(١) ضرورات الالتزام بالسنة النبوية والنتائج المترتبة عليه.

(٢) منهاج السنة في مسألة محبة آل البيت.

(٣) ملامح من الرسالة الاحمدية تمس المفردات التالية مسا سريعا : الرسول صلى الله عليه وسلم كدليل الى الله سبحانه ، شهود الاثبات على رسالته ، الاهداف الاساسية والتحولات الكبرى ، القدرة على التغيير ، الصدق المطلق ، المصير البشري والكوني، الحرص على انقاذ الانسان ، ثم .. كتاب الله سبحانه باعتباره الشاهد الاكبر على نبوته صلى الله عليه وسلم.

وفي السياقين المذكورين بجل مفرداتهما ، لا يلتزم النورسي خطا زمنيا في التعامل مع المعطى النبوى ، ولا يحاول ان يمارس تغطية تاريخية ، كما انه لا يبذل جهدا ملحوظا في اعمال آليات الجرح والتعديل وعلم الرجال في التعامل مع الحديث ، ذلك انه يعتبر هاتين من مهمات المؤرخ ورجل الحديث ، وان مهمته هي بالدرجة الاولى ،

اعادة قراءة السيرة في ضوء رؤية انتقائية تتجاوز الحركة في مدى الطول والعرض الى العمق الروحي.

ان النورسي – اذن – في مقاطعه الثمانية الاساسية عن عصر الرسالة ، ولمساته السريعة المتفرقة هنا وهناك ، لا يريد ان يكتب سيرة او تاريخا ، وفق منهج المؤرخين وكتاب السير ، ولا ان يعالج المرويات النبوية وفق منهج المحدثين ، ولكنه يمضي باتجاه آخر اقرب الى المنهج الحدسي الذي لا يخاصم المعطيات العقلية او يدير لها ظهره ، وانما يتصالح معها – اذا صح التعبير- ويوظفها الى المدى الاقصى لتأكيد استنتاجاته ، ومن ثم فان آليات التحليل والاستدلال والمقارنة ، ترى دائما وبحضور مكثف في رحلات النورسي عبر نسيج الظواهر النبوية.

نعم ، انه يوظف المادة التاريخية ، واكثر من هذا يعتمد "الحديث" في بناء مادته ، لكنه يذهب الى ما وراء التاريخ ، ويوغل باستمرار في دلالات الحديث وجذورها الضاربة في عالم الغيب .. وهو في الحالتين ، بكشفه عن البطانة الروحية لاحداث السيرة ، والبعد الكوني للظاهرة النبوية، انما يغني الدراسات المنصبة على السيرة ، ويقدم المزيد من الاضاءات التي افلتت من بين يدي المؤرخ ، ويمضي لسبر غور المعطى النبوي بما يوازي عمقه الحقيقي ، الذي يمكن ان نتصور طبقاته البعيدة بمجرد ان نتذكر واحدا فقط من احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " لو علمتم ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا"[(٦٦)].

ان النورسي ، انسجاما مع منهجه في الرسائل جميعا ، ينطلق من الجزئي الى الكلي ، ومن الموقوت الى الابدي ، ومن الفاني الى الخالد ، ومن الظاهر الى المغيب ... ان معطياته تتجذر فيما وراء الظواهر والموجودات والاشياء ، ولكن ليس قبل ان تمر بها وتتعانق معها في وفاق مستمد من تصور الاسلام نفسه الذي تتلاشى فيه الحدود المتوهمة بين الثنائيات ، والذي تلتقي تحت مظلته كل التقابلات والاضداد في وحدة كونية يصير فيها الانسان سيدا ، والعالم جسرا للمضي الى الامام ، والكائنات

اطرافا للود والتفاهم ، والحياة الدنيا فرصة للتحقق المجزوء الذي يعكس بالنسبة المحسوبة ، الصيغة الكاملة او الحالة المثلى ليوم الحساب.

اطرافا للود والتفاهم ، والحياة الدنيا فرصة للتحقق المجزوء الذي يعكس بالنسبة المحسوبة ، الصيغة الكاملة او الحالة المثلى ليوم الحساب.

هوامش البحث

(١) ترجمة احسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى ، دار سوزلر للنشر ، استانبول - ١٩٩٢م. وقد سميت الرسالة في "المثنوي العربي النوري" :"رشحات من بحر معرفته صلى الله عليه وسلم" ، ووردت بنصها في الرسالة الثانية من المثنوي "ص٦٥ - ٧٩" ، تحقيق احسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى ، مطبعة الزهراء ، الموصل - ١٩٨٨.

(٢) انظر : المكتوبات : ترجمة احسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى ، دار سوزلر للنشر استانبول - ١٩٩٢ م "وهو المجلد الثاني من كليات رسائل النور" ، واللمعات ترجمة احسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى ، دار سوزلر للنشر ، استانبول -١٩٩٣ م "وهو المجلد الثالث من كليات رسائل النور" . والشعاعات ترجمة احسان قاسم الصالحي ، الطبعة الاولى ، دار سوزلر للنشر ، استانبول -١٩٩٣ م "وهو المجلد الرابع من كليات رسائل النور".

(٣) انظر : الكلمات ص٦٢ - ٦٣ ، ٧٢ - ٧٦ ، ٩٦ - ٩٧ ، ١١٨ - ١١٩ ، ٤١٧ ، ٨٣١ - ٨٣٢، المكتوبات ص ٢٩١ - ٢٩٧ ، ٤٩٥ - ٤٩٩ ، اللمعات ص١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٨ - ١٤٤ ، ١٥٣ - ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٩٤ - ١٩٥ ، ٥٢٦ - ٥٢٨ ، ٥٥٣ - ٥٥٦ والشعاعات ص ١٠٤ - ١١١ ، ١٦٦ - ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٧٥ - ٢٧٦ ، ٣١٣ - ٣١٤ ، ٦٣٨ - ٦٣٩ ، ٦٧٦ - ٦٨٠.

(٤) تعالج الكلمة ٣١ المعراج النبوي "الكلمات ص ٦٦٦ - ٧٠٦" ، وتعالج الرسالة ١٩ جوانب من الرسالة الاحمدية "الكلمات ص٢٥٤ -٢٦٨".

(٥) سعيد القديم : هو اللقب الذي يطلقه النورسي على نفسه قبل قيامه بتأليف رسائل النور"١٩٢٧م" وقبل ان يأخذ "سعيد الجديد" على عاتقه مهمة انقاذ الايمان.

(٦) المكتوبات ص ٢٥٦.

(٧) قام بتخريج احاديث الكتاب فلاح عبد الرحمن عبد الله ، ويمكن للقاريء الرجوع الى تفاصيل التخريج في الهوامش الملحقة بالكتاب.

(٨) صفحة ١١ من طبعة مطبعة الزهراء ، الموصل -١٩٨٧م.

(٩) انظر : الكلمات ص٢٦٢ - ٢٦٣.

(١٠) نفسه ص٣٨٦ .

(١١) نفسه ص٢٨٧ – ٢٨٨.

(١٢) اصل الحديث : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" حديث صحيح اخرجه الترمذي"٢٤٢٢" "تحفة" وابو نعيم في حلية الاولياء (٢٥٣/٣) والحاكم "٣٠٦/٤) وابن عدي في الكامل "٢٤٩/١" "انظر الكلمات ص٣٩٤ هامش١".

(١٣) انظر : الكلمات ص ٣٩٤ – ٣٩٧.

(١٤) انظر : نفسه ص٤٠٠ – ٤٠١.

(١٥) انظر : نفسه ص٤٠١ – ٤٠٢.

(١٦) نفسه ص٦٦٦.

(١٧) نفسه ص٦٦٦.

(١٨) نفسه ص٦٨٠.

(١٩) الاية ١ من سورة الاسراء ، والايات ٤- ١٨ من سورة النجم.

(٢٠) الكلمات ص٦٧١.

(٢١) نفسه ص٦٧٢.

(٢٢) نفسه ص٦٨٤.

(٢٣) نفسه ص٦٨٥.

(٢٤) انظر : نفسه ص٦٩٥ – ٧٠١.

(٢٥) سورة الاسراء ، الاية ٥٩.

(٢٦) سورة فصلت ، الاية ٥٣.

(٢٧) سورة يونس ، الاية ٣٩.

(٢٨) المكتوبات ص١٧٣.

(٢٩) نفسه ص١١٤.

(٣٠) نفسه ص١١٥.

(٣١) نفسه ص١١٦ - ١١٧.

(٣٢) نفسه ص١١٨.

(٣٣) نفسه ص١١٩ – ١٢٠ . ولمزيد من التفصيل حول هذه المسألة انظر ص١٢٠ – ١٢١.

(٣٤) نفسه ص١٢٣ – ١٢٤.

(٣٥) اللمعات ص٣٨.

(٣٦) نفسه ص٤١.

(٣٧) اللمعات ص٨٠ – ٩٦.

(٣٨) سورة التوبة ، الايتان ١٢٨ – ١٢٩.

(٣٩) سورة آل عمران ، الاية ٣١.

(٤٠) اللمعات ص٨١.

(٤١) نفسه ص٨٢.

(٤٢) سورة آل عمران ،الاية ٣١.

(٤٣) اللمعات ص ٨٤ – ٨٥ وانظر الصفحات ٩٠ – ٩٤.

(٤٤) حديث معناه صحيح ، ابن السمعاني في ادب الاملاء عن ابن مسعود "شرح المناوي على الجامع الصغير". وقال ابن تيمية "٣٧٥/١٨":معناه صحيح ولكن لا يعرف له اسناد ثابت وايده السخاوي والسيوطي ، راجع كشف الخباء ٧٠/١" "اللمعات ص٨٧هامش ١".

(٤٥) اللمعات ص٨٧.

(٤٦) نفسه ص٨٩.

(٤٧) نفسه ص ٨٩ – ٩٠ وانظر ص ٩٤ – ٩٥.

(٤٨) سورة القلم ، الاية ٤.

(٤٩) جزء من حديث عائشة رضي الله عنها . اخرجه مسلم ٧٤٦ واحمد ٥٤/٦ ، ٩١ ، ١٦٣ وابو داؤد ١٣٤٢ والنسائي ١٩٩/٣ – ٢٠٠ "اللمعات ص٩٥ هامش١".

(٥٠) اللمعات ص٩٥.

(٥١) سورة هود ، الاية ١١٢ ، اللمعات ص٩٥ -٩٦.

(٥٢) سورة الفتح : الايتان ٢٨ -٢٩.

(٥٣) الشعاعات ص٦٥٤.

(٥٤) كتيب يتضمن منظومة من الادعية والاوراد وهو ليس "المثنوي العربي النوري" المؤلف بالعربية هو الاخر.

(٥٥) الشعاعات ص٦٥٤.

(٥٦) نفسه ص٦٥٥ - ٦٥٦ والفقرة المذكورة وردت في النص باللغة العربية ، ولعل هذا سبب تلاحق المضافات في التعبير مما هو غير مألوف في الاسلوب العربي.

(٥٧) الشعاعات ص٦٥٦ - ٦٥٧.

(٥٨) نفسه ص٦٥٧ - ٦٥٨.

(٥٩) نفسه ص٦٥٨.

(٦٠) نفسه ٦٥٩.

(٦١) نفسه ص٦٥٩ - ٦٦١ ولابد هنا من الاشارة الى ان الوقائع الماضية والمستقبلية التي اشار اليها النورسي باحالتها على معطيات الحديث النبوي وضوابطه ، يتعرض بعضها للتضعيف او الانكار ، ويمكن في هذا المجال احالة القارىء على كتاب الدكتور اكرم العمري "السيرة النبوية الصحيحة" (مكتبة العلوم - المدينة المنورة- ١٩٩٢) الذي يعد من اكثر الدراسات المعاصرة اعتمادا على منهج المحدثين في التعامل مع سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٦٢) انظر : الشعاعات ص٦٦١ - ٦٦٣.

(٦٣) نفسه ص٦٣٣ - ٦٦٦.

(٦٤) نفسه ص٦٦٥ -٦٦٦.

(٦٥) نفسه ٦٦٧ - ٦٦٨.

(٦٦) رواه الامام احمد والترمذي وابن ماجة.

الغـزالـي

و

" السيرة النبوية "

كتب هذا البحث بناء على طلب من الاستاذ الدكتور عبد الحليم عويس مدير دار الصحوة بالقاهرة ليكون ضمن بحوث الكتاب التذكاري لمناسبة بلوغ الشيخ محمد الغزالي السبعين من عمره (عليه رحمة الله) وقد صدر ضمن الكتاب المذكور.

(١)

على مدى نصف القرن تحرك (الغزالي) بفكره الايماني المؤثر، ورؤيته المقارنة الذكية ، واسلوبه المتميز ذي النكهة العذبة ، لكي يقول اشياء كثيرة ، ويفصل الحديث في معضلات شتى ، ويكتب عن هموم الاسلام والمسلمين ، ويؤكد قيما ويرفض اخرى.

وعبر الوف الصفحات التي كتبها ، في هذا المدى الزمني الطويل ، لم يكد يترك مسألة تتميز بحساسية ما في الساحة الاسلامية ، الا ووقف عندها دارسا، متفحصا ، محلّلا ومتوصلا - في نهاية الامر- الى حشد قيّم من النتائج والمعطيات التي اغنت حركة الفكر الاسلامي المعاصر ، وغذت مكتبته الناشئة — يومها — بالعديد من المؤلفات القيمة.

وفي مناسبة تجاوزه السبعين ، حيث تحتفي (دار الصحوة) بتقديم هذا الكتاب عن المفكر (الشيخ) اطال الله في عمره ، سيلتقي القاريء بمقالات ودراسات شتى عن فكر الرجل الذي جاوزت اعماله الستين عددا ، وحيث يجيء عمل كهذا كفاء او بعض كفاء لما قدمه (الغزالي) من عطاء ولما نذر حياته من اجله.

لكن .. تظل جوانب من هذا العطاء في حاجة الى مزيد من القول ، لا سيما تلك التي لم تنل قدرا كافيا من البحث والتحليل . فلعل الكثير قد قيل ويقال عن الغزالي "مفكرا اسلاميا"، ولكن ما الذي قيل او يقال عنه "اديبا" او "مؤرخا"؟

(٢)

لا يتسع المجال — بطبيعة الحال — للحديث عن الاثنين معا ، ومن ثم ستقتصر هذه الصفحات على التأشير على ملامح الجهد الذي بذله (الغزالي) في حقل "التاريخ" حيث يبرز كتابه القيم "فقه السيرة" واحدا من الدراسات المعاصرة التي تناولت عصر الرسالة بالدرس والتمحيص والتحليل.

في قائمة مؤلفاته الاخرى ، قطع واسعة ، بل فصول بكاملها تمس التاريخ ، ولنتذكر كتبا مثل "التعصب والتسامح بين المسيحية و الاسلام" ، "الاستعمار احقاد واطماع " "كفاح دين" و "معركة المصحف في العالم الاسلامي" كما اننا نجد كتابا من مثل "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين" مخصصا للرد على معطيات عدد من هؤلاء ذات الارتباط الصميم بالتاريخ منهجا وموضوعا.

ومعروف ان اية محاولة للكتابة في دائرة الفكر الاسلامي ستجد نفسها مضطرة للعودة الى التاريخ او الاستمداد منه تجذيرا وتوثيقا ، وتأكيدا للتنظيرات والتحليل بمنطق الوقائع المتحققة في الزمن والمكان ، اي في التاريخ ، ومن ثم فان مفكرا اسلاميا (كالغزالي) سيضع قارئه ، بين لحظة واخرى ، ولهذه الاسباب جميعا ، قبالة التاريخ ، او في نسيجه بعبارة ادق. انما نريد في هذا الحيز المحدود الذي رسمته (دار الصحوة) المباركة للمساهمين في الكتاب، ان نقف قليلا عند مؤلفه الاكثر شهرة وانتشارا ، والاقرب الى "البحث التاريخي" من سائر مؤلفاته الاخرى ، ذلك هو "فقه السيرة" الذي يعنى بدراسة عصر الرسالة وسيرة الرسول عليه افضل الصلاة والسلام.

(٣)

لقد صدر الكتاب في منتصف العقد الخمسيني - وربما قبله بقليل (اذ لا املك طبعاته الاولى)- ، يوم لم تكن مكتبة "السيرة" قد تلقت -بعد- سوى عدد محدود من الاعمال المعاصرة ، مؤلفة بايدي رجال كانت عقول معظمهم نصفها مع هذا الدين ونصفها الاخر مع خصومه واعدائه .

تقدم (الغزالي) في ذلك الوقت المبكر لكي يملأ الفراغ ، ويلبي حاجة القارىء المسلم الى مؤلف في السيرة لم تكن تعوزه سوى بعض المطالب المنهجية لكي يكون واحداً من احسن ما كتب — في هذا المجال — من دراسات .

اما على مستوى "الموضوع" فلقد قال (الغزالي) كل شيء مهم على وجه التقريب ، ولم يكد يترك ايما مساحة قد تكون مجالا لباحث او مستزيد في نطاق الدراسات العامة وليست التخصصية لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بطبيعة الحال.

ولقد انتشر الكتاب ، سنة صدوره ، وطيلة السنوات التالية انتشارا ملحوظا ، فلم تتبق مكتبة خاصة او عامة لم يدخلها ، ولم يجد اي بيت يقطنه مثقف مسلم بداً من اقتناء الكتاب.

وفي ديسمبر من عام ١٩٦٥ كان الكتاب قد بلغ طبعته السادسة[1] محققا كسبا منهجيا بقيام الشيخ (محمد ناصر الدين الالباني) بتخريج احاديثه ، فزاده بذلك قيمة على قيمته ، ومنحه "التوثيق" الضروري لكل ما يتعلق بطبيعة الارتباط بين الحدث التاريخي وبين معطيات السنة الشريفة.

بعد ثلاث سنوات ، وقد قفلت عائدا من مصر اثر انهاء دراستي للدكتوراه في التاريخ الاسلامي ، كلفت بتدريس مادة "السيرة" لطلبة قسمي التاريخ واللغة العربية في كلية الاداب، وبعد ان قلبت فهارس المكتبات ومؤلفات السيرة المعاصرة ، لم اجد غير "فقه السيرة" ما يمكن ان يؤدي الغرض من توصيل المادة الى عقل الطالب الجامعي ووجدانه باكبر قدر من الامانة العلمية ، والقدرة على التأثير في الوقت نفسه.

فان العمل الجامعي ، رغم توجهه الاكاديمي في الاساس ، يظل يحمل قدرا من المطالب التربوية التي يحتاجها الطالب ، جنبا الى جنب مع المفردات التخصصية ، وذلك امر عاد كثير من المعنيين "بالاكاديمية " لكي يؤكدوه كرة اخرى.

ولقد كان "فقه السيرة" بطريقة صاحبه في المعالجة ، وجدله القوي ، وتشبثه بجوهر الحقائق ، ورفضه للدخل والزيف ، ورؤيته المقارنة ، واستنتاجاته الدقيقة ، وقدرته على الربط المقنع بين الاسباب والمسببات .. فضلا عن اسلوبه المتميز الذي يعرض الوقائع والاحداث كما لو انها تتشكل امام القاريء لحظة بلحظة ... وقبل هذا

وذاك التزامه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم موردين اساسيين لصياغة هيكل السيرة وتشكيل معماره الواسع المتشعب[٢].

كان الكتاب بهذا كله قديرا على اداء مهمته في الساحة الاكاديمية ، فضلا عن مهمته التي اداها ويؤديها في دائرة الثقافة التاريخية العامة ، وعلى نطاق الاف القراء الذين وجدوا في "فقه السيرة" ضالتهم المنشودة.

(٤)

منذ اللحظات الاولى يرفض (الغزالي) في مقدمته للكتاب "تحييد" الدراسة التاريخية ، خاصة اذا كانت معنية بحياة رجل كمحمد (عليه افضل الصلاة والسلام) فان حياة كهذه ليست، بالنسبة للمسلم في الاقل ، "مسلاة شخص فارغ ، او دراسة ناقد محايد . كلا كلا انها مصدر الاسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فاي حيف في عرض هذه السيرة ، واي خلط في سرد احداثها ، اساءة بالغة الى حقيقة الايمان نفسه"[٣].

ومعنى هذا كما هو واضح ، ان رفض "التحييد" لا يعني الانحراف بعيدا عن "الحقيقة التاريخية" بل بالعكس تماما ، ان هذه الحقيقة ، اذا ما ارتبطت بالنبوة ، كان الانحراف عنها كفرا وتلفيقا و"اساءة بالغة لحقيقة الايمان نفسه" ، ومن ثم يرتبط التوجيه التربوي في منظور (الغزالي) ، بالبحث العلمي في التاريخ ، يغدوان متعاضدين لا متضادين كما قد يخيل للبعض.

"لقد بذلت وسعي" يقول الرجل " في اعطاء القاريء صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجتهدت في ابراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث ، ثم تركت للحقائق المجلوة ان تدع اثارها في النفوس دون افتعال او احتيال"[٤].

وفضلا عن القرآن الكريم والسنة الشريفة ، استفاد (الغزالي) في تغذية مؤلفه ، من جل السير التي كتبها القدامى والمحدثون " استفادة حسنة" كما يقرر في مقدمته وهو يرى محقا "ان المؤرخين المحدثين يميلون الى التعليل والموازنة وربط الحوادث

المختلفة في سياق متماسك وذاك احسن ما في طريقتهم" وان "المؤرخين القدامى يعتمدون على حشد الاثار ، وتمحيص الاسانيد ، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون " وان "في هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر لو احسن الاستشهاد بها وايرادها في مواضعها" . ثم هو يسعى بعد هذا الى ما يسميه "المزج بين الطريقتين على نحو جديد يجمع ما في كلتيهما من خير" فيجعل "من تفاصيل السيرة موضوعا متماسكا يشد اجزاؤه روح واحد" ويوزع "النصوص والمرويات الاخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على اتقان صورته واكمال حقيقته "(٥).

وهذا هو ما يفعله منهج البحث الحديث في التاريخ : انه يستقريء المادة التاريخية المعطاة في بطون المصادر والمنقولات المادية ، ثم يعمل فيها تحليلا وتمحيصا ودراسة ومقارنة واستنتاجا ، ويعيد تركيبها بما يجعلها اكثر مقاربة للواقعة التاريخية ، واقدر في الوقت نفسه على التكشف قبالة القاريء او الدارس.

ومع هذا الجهد الثنائي ، هنالك محاولة للاستفادة مما يسميه هذا المنهج بالعلوم المساعدة او الموصلة ، وهي بالدرجة الاولى ما اصطلح على تسميته "بالعلوم الانسانية" من جغرافية ولغة وادب وفن ونفس واجتماع وادارة وسياسة وفلسفة واقتصاد .... الى اخره.

ولن يكون باحث (كالغزالي) امسك في مؤلفاته الاخرى بخيوط العديد من هذه العلوم، بمعزل عن الافادة منها في مؤلفه هذا ، الامر الذي يبدو واضحا بمجرد تصفح فصوله ومتابعة "الخلفيات" التي كان المؤلف يفرشها لاضاءة الحدث التاريخي وتوضيح معالمه وتحديد ابعاده.

ولعل ما يؤخذ على صاحبه هاهنا ، وربما يكون من التقاليد التي سادت في مؤلفات جيل الرواد في حقل البحث التاريخي ،اولئك الذين قدموا اليه من خارج الاكاديمية ، من مثل (العقاد) و (هيكل) و (الغزالي) نفسه ... انهم جميعا تجاوزوا نظام التهميش المعتمد في منهج البحث الحديث لتوثيق المعطيات المثبتة في المتون . وهو

تقليد غير مبرر على اية حال ، سيما بالنسبة لرجل (كالغزالي) يعرف جيدا قيمة التوثيق . بل ان الامر ليتجاوز المعطيات الوضعية الى المادة الدينية ذاتها حيث لا نجد اشارة ما الى ارقام الايات التي تم الاستشهاد بها ، او السور التي تنتمي اليها ، كما اننا لا نجد ، الا في الطبعة السادسة فما بعد ، تخريجا للاحاديث النبوية الشريفة في هوامش الفصول.

ومهما يكن من امر فان (الغزالي) يعود لكي يؤكد ان البحث الجاد في "السيرة" لن يستكمل اسبابه بمجرد تقديمه كواقعة تاريخية ممحصة او هيكل رسمت ابعاده بالدقة التي يتطلبها "العلم" ، وانما هناك مع هذا كله ضرورة"ان تكون السيرة شيئا ينمي الايمان ويزكي الخلق ويلهب الكفاح ، ويغري باعتناق الحق والوفاء له ، ويضم ثروة طائلة من الامثلة الرائعة لهذا كله "[٦].

وهو يزيد هذا البعد التوجيهي في البحث التاريخي وضوحا وحسما بقوله "انني اكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده ، او تابع عن سيده ، او تلميذ عن استاذه ، ولست — كما قلت — مؤرخا محايدا مبتوت الصلة بمن يكتب عنه"[٧].

ومن اجل ذلك بدأ (الغزالي) كتابة صحائفه وهو في مدينة رسول الله ﷺ " في الجوار الطيب الذي سعدت به حينا ، واعانني على اتمام دراسات جيدة في السنة المطهرة والسيرة العطرة"[٨].

فبنوع من المعايشة التاريخية بالاقتراب من بيئة الحدث ، ومناخه ، في مستواه المكاني على الاقل ، قدر المؤلف ان يجيء بحثه اكثر دقة واشد تأثيرا ، وهذا يذكرنا بما فعله الشيخ (ابو الحسن الندوي) — في فترة مقاربة — عندما اخذ يكتب فصولا عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩].

ومما لا ريب فيه ان المعايشة التاريخية كانت ، ولا تزال ، واحدة من الوسائل التي تمكن المؤرخ من مقاربة الموضوع ، مجال البحث ، او التواصل اكثر مع حقائقه ومعطياته ان على مستوى السيطرة "المنهجية" على المادة ، او التحقق بالتوتر الذهني

والوجداني المطلوب لشحن العمل بالقدرات "التوجيهية" التي جعلها (الغزالي) نصب عينيه.

(٥)

ندخل في سياق الكتاب ونتابع فصوله ومقاطعه فتتكشف امامنا ميزاته الواحدة تلو الاخرى ، فلا يكاد يؤخذ على صاحبه ، فضلا عن ضرورات التوثيق التي المحنا اليها ، سوى التزامه بالتسلسل الزمني لاحداث السيرة ووقائعها ، وهو التقليد الذي كان سائدا في دراسات السيرة — يومها- امتدادا لمنهج "الاجداد" الحولي المعروف ، لكن لا هذا ولا ذاك قد يبرر منهجا كهذا يسمح لواقعة الزمن ان تأخذ بتلابيب المؤرخ وتصده عن متابعة المعطيات النمطية لكل جانب من جوانب السيرة من اجل معاينتها بشكل ادق واكثر شمولية ، وصولا الى تبين ملامحها وقسماتها الاصيلة، والتحقق بمقاربة نبضها وصيغ تشكلها قدر الامكان.

وعلى سبيل المثال ، فنحن لو اردنا ان نعرف بشكل اكثر دقة ووضوحا، طبيعة العلاقة بين الدين الجديد واليهودية في جزيرة العرب ، فان علينا ان نجمع كل الجزئيات والتفاصيل التي تغذي هذه الواقعة ، وان نعرضها للمعاينة والدرس والتحليل وصولا الى ادراك ابعادها الحقيقية ، دون ان نسمح للزمن بان يقطعها بحشود من الوقائع التي لا تمت اليها او تمسها من قريب.

بينما في المنهج "الزمني" ستقطع علينا محاولة السيطرة هذه ، احداث وجزئيات وتفاصيل اخرى لا تنتمي الى الواقعة ، وقد يطول بنا السرى لكي ما نلبث ان نجد انفسنا نعود ثانية اليها ، وهكذا حتى نهاية عصر الرسالة الذي تقاطعت في نسيجه علاقات وممارسات ومعطيات في اتجاهات شتى.

ان تجاوز التسلسل الزمني لاحداث السيرة صوب اعتماد المنهج "النمطي" لن يمكن المؤرخ وحده من السيطرة اكثر على الحقائق ، ولكنه يعين قارئه ايضا على تحقيق هذا الهدف.

ولنتابع مسرعين هذه المسألة في كتاب (الغزالي) بقدر ما يتعلق الامر بواحدة من حلقات السيرة وهي طبيعة العلاقة بين الاسلام واليهودية ، في الصفحتين ١٥٣ — ١٥٤ (من الطبعة السادسة) يلتقي القاريء بعنوان "صنع اليهود" يتحدث المؤلف فيه عن وضع اليهود في يثرب قبل الهجرة ، وعن اثارتهم الشحناء بين قبائلها العربية ليتمكنوا من احكام قبضتهم على مقدرات البلد ...الخ .. وعن علاقة هذا كله بتوجه نفر من اهل يثرب للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند العقبة...

بعدها يجيء الحديث عن بيعتي العقبة ، وطلائع الهجرة ، واجتماع دار الندوة، فالهجرة نفسها، فالاستقرار في المدينة ، فاسس البناء للمجتمع الجديد ، فالكفاح الدامي مع الوثنية . ولا يرجع القاريء ثانية لمتابعة العلاقة مع اليهود الا في الصفحة ٢٥٧ ، بعد مقاطع عن موقفهم من الوثيقة التي اصدرها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة (١٩٧ — ١٩٩) ، وتحت عنوان "بدء الصراع بين اليهود والمسلمين" ..تقطع هذه كرة اخرى بصراع لا يقل ضراوة مع الوثنية، وتعود الى اليهود ثالثة (٣٠١ — ٣٠٤ ، ٣٣٥ — ٣٤٥) وبعد الحديبية "مع اليهود مرة اخرى" (ص ٣٦٨).

وما يقال عن هذه الحلقة يمكن ان يقال عن حلقات اساسية اخرى من مثل : "العلاقات مع النصرانية" ، "الصراع ضد الوثنية"، "حركة النفاق" ، "قيام دولة الاسلام في المدينة ، وخصائصها العقيدية ونموها التشريعي" ..الخ..

وعلى اية حال فان الميزات التي يتالق بها "فقه السيرة" ، بدء من عنوانه الذي صمم بعناية ، وانتهاء بلغة العرض التي تميز كتابات (الغزالي) بجمالياتها الخاصة ، تكاد تطغى على مأخذ كهذا ، فتعرف كيف تضع القاريء في مناخ السيرة باكبر قدر من الاخلاص للحق، والمقاربة للواقعة التاريخية ، والقدرة على التأثير.

(٦)

لنرجع الى بدايات الكتاب ، ولسوف نجد صفحاته الاولى تمهد الطريق الى معالجة السيرة بتنفيذ اضاءة تاريخية لما كان عليه العالم ، على المستوى الديني ، قبل ظهور الفجر الاسلامي . والمؤلف يتحرك هاهنا ، بالايجاز المطلوب في دائرتين : اولاهما عامة تضم العالم كله ، وثانيتهما خاصة بجزيرة العرب . وتمهيد كهذا يعد ضرورة منهجية لمعرفة الملامح الاساسية للبيئة التاريخية التي تشكل فيها الحدث موضوع البحث.

بعدها يأخذ المؤلف ببناء معماره عن السيرة حيث تتألق ميزات شتى ، المحنا الى بعضها ، ونريد ان نقف قليلا عند بعضها الاخر.

قد يكون حضور الرؤية الاسلامية الواضحة الحاسمة ، للمؤلف ، في تركيب جزئيات الواقعة التاريخية، وتفسيرها ، والتقديم لها ، والتعقيب عليها، او وضعها في صيغة مقارنة مع "حالات" اخرى ، ابرز هذه الميزات، بل قد تكون القاعدة الاساسية التي تنبثق عنها ، او تتفرع ، سائر الميزات الاخرى.

فما اكثر الذين كتبوا عن السيرة في الغرب او الشرق . فاما في الغرب فقد تحرك جلهم في دائرة "الاستشراق" التي وان اخذت تنزع عنها ، بمرور الوقت ، ارديتها الكهنوتية، وتتخلى عن التشبث بالمنظور النصراني المتعصب ، وتفيء الى "الاكاديمية" بدرجة او باخرى، فانها ظلت تعاني من ازمة منهجية يصعب تجاوزها ، لانها تنبثق عن بيئة عقلية ، وثقافية ، ووجدانية ، لا يمكن الا ان تمارس تاثيرها ، الواعي او غير الواعي ، في الدراسة الغربية لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ناقشنا هذه المسألة ، وطبقناها ، بالتفصيل ، من خلال معالجة منهج المستشرق البريطاني المعاصر "مونتكمري وات" في السيرة النبوية والذي تم اختياره لكونه احد اكثر المستشرقين حداثة و "ادعاء" للموضوعية في معالجة السيرة . ومع ذلك فانه لم يقدر على تجاوز الثغرات المنهجية التي حفرت ، ولا تزال ، خندقا عميقا

بين "الغربي" وبين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدو ان عبوره امر في غاية الصعوبة ان لم يكن مستحيلا[١٠].

واما في الشرق ، فان الكثيرين ممن مارسوا العمل في حقل السيرة ، عند منتصف هذا القرن ، كانوا – بدرجة او اخرى – من تلامذة الفكر والمنهج الاستشراقي ، ولهذا لم يكن بمقدورهم – رغم اخلاص بعضهم للحق – ان يقدموا الصورة المرجوة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبمرور الوقت اخذ الاسلاميون يدخلون الساحة ، فهم احق بها واهلها ، وهم – بكل المقاييس – الاكثر قدرة على مقاربة مفردات السيرة وادراك ابعادها ، وتقديمها للناس كما تحققت فعلا في بيئتها من الزمان والمكان ، وفي اطارها الروحي والعقدي، لا كما يراد لها ان تكون فيما سماه المفكر الفرنسي المسلم "اتيين دينيه" : محاولة لرسم صورة الرسول ﷺ على مكاتب الغربيين لكي تكون المانية او انكليزية او فرنسية[١١] .

واذن فان (الغزالي) بدخوله الساحة ، في تلك الفترة المبكرة ، كان سباقا الى ملء الفراغ . ليس هذا فحسب ، بل انه منح المكتبة الاسلامية "الناشئة" في حقل السيرة واحدا من اكثر الاعمال التزاما بـ "الاسلامية" في البحث التاريخي ، هذه "الاسلامية" التي لا تقتضي ، فقط، التميز عن "الخصوم " والمتأثرين بهم ، وانما تمضي لكي تعلن تميزها حتى عن المسلمين انفسهم من الاجداد والاباء والاحفاد ، اولئك الذين توهموا ان تمجيد شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون بتحميل سيرته الكثير من الاضافات التي لا تستقيم للنقد والتمحيص.

انه يقرر ، منذ البداية ، ان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم "الخاصة والعامة" جرت "على قوانين الكون المعتادة ، فلم تخرج – في جملتها – عن هذه السنن الدائمة" فهو " من حيث انه بشر ، يجوع ويشبع ويصح ويمرض ، ويتعب

ويستريح، ويحزن ويسر"[١٢]. وكان في حياته العامة "رسولا يبلغ عن الله ، ويربي المؤمنين ، ويقاوم الكافرين ، ويدأب على نشر دعوته حتى تؤتي ثمارها في الافاق"[١٣].

ثم ان المؤلف يمضي في عشر صفحات (٤٦- ٥٦) لكي يؤكد هذه الحقيقة وينفي الدخل الذي اراد "المحبون" ان يزينوا به سيرة رسولهم صلى الله عليه وسلم ... "ان محمدا وصحبه تعلموا وعملوا ، وخاصموا وسالموا ، وانتصروا وانهزموا ، ومدوا شعاع دعوتهم الى الافاق ، وهم على كل شبر من الارض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الارض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل انهم تعبوا اكثر مما تعب اعداؤهم ، وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم ، فكانوا في ميدان تنازع البقاء اولى بالرسوخ والتمكين . وقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر في اي صدام وان كانوا احصف رأيا من ان يتوقعوا هذا " [١٤]. .

ان (الغزالي) هنا يرسم خطا حاسما من خطوط السيرة التي تماوجت في ايد كثيرة من المخلصين ، لكنها غدت في ايدي الخصوم والماكرين اسلحة تشهر ضد صاحب السيرة عليه افضل الصلاة والسلام ، وضد دينه واتباعه . ثم هو يمضي لمتابعة مفردات السيرة بالرؤية الاسلامية نفسها ، متقبلا او رافضا ، مؤكدا او نافيا ، ممحصا ومحللا ومقارنا ... لكي يخلص في كل مرة الى "الصيغة" التاريخية الاكثر توافقا مع معطيات كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والاشد – بالتالي – قربا من الحقيقة التاريخية ، ما دام ان هذه الحقيقة ، في نطاق السيرة على وجه الخصوص ، ترتبط ارتباطا صميما بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.

(٧)

والكتاب في مجمله يجيء كفاء للعنوان الذي اختاره الغزالي : "فقه السيرة" وبمقدور المرء ان يلحظ انعكاس هذا التوافق في المنهج وفي الرؤية التي تنصب على الحدث.

في الاولى يبني المؤلف تصميمه للكتاب وفق طبقتين تقوم احداهما على الاخرى .. ففي الطبقة الاساسية يقدم الوقائع والجزئيات المتفق عليها والتي تشكل المادة الاساسية لهذا الحدث او ذاك في دائرة عصر الرسالة ، وفي الطبقة التالية يقوم المؤلف بتحليل الحدث وتفسيره، او التمهيد له والتعقيب عليه . وقد يلجأ الى المقارنة بابعادها المختلفة : العقدية والتاريخية والنفسية والاجتماعية والاخلاقية ، اذا اقتضى الامر هذا او ذاك.

ولطالما اجرى المؤلف مقارنة مؤثرة بين الواقعة النبوية وبين الحاضر لكي يهز ضمائر المسلمين وعقولهم ، الامر الذي يجيء في سياق الهدف التوجيهي للكتاب فيما سبق وان اشرنا اليه . ويجب ان نتذكر هنا ان "اضافات" المؤلف او تعقيباته على "الحدث" قد تجيء بعد استكمال عرض هذه الواقعة او تلك ، وقد تسبقها كتمهيد لها، او تتخلّلها احيانا كما تتخلّل الشرايين جسد الانسان ، وهي في كل الاحوال لا تجيء منفصلة عن الحدث ، تالية عليه ، بقدر ما تسعى لان تتعاشق معه وتتخلل مفرداته وجزئياته .

واسلامية المؤلف لا تبدو او تتحقق في طبقة دون طبقة ، وانما هي تمضي لكي تعمل عملها في المعمار كله .. في طبقاته جميعا.

في المنهج يلتزم المؤلف ، كما المحنا قبل قليل ، وفي حدود الممكن بطبيعة الحال ، الهيكل الاساسي للحدث دونما زيادة او انتقاص ، الامر الذي يعني التحقق بمقاربة اشد لوقائع السيرة ، وادراك اعمق لنسيجها المتفرد وشخصيتها المتميزة.

فالزيادة التراكمية التي اضيفت الى السيرة بمرور الوقت من قبل المسلمين انفسهم ، والانتقاص الذي يبلغ حد الشك الاعتباطي والنفي الكيفي، الذي مارسه الخصوم في الساحة الاستشراقية وخارجها ، هما حالتان تخرجان – منهجيا – عن "الاسلامية" . ذلك ان الحالة التراكمية لا تدرك القيمة الحقيقية لعصر الرسالة .. لجوهر النبوة التي جاءت لكي تعمل من خلال الناموس ، وفي نسيج الزمن والمكان ..

اي في التاريخ ، لا خارجه او ضده .. اما الحالة الثانية فتتعمد ان تسلط سلاح الشك والنفي على وقائع مؤكدة في بنية السيرة ، لكي تمسخ – ما وسعها الجهد – الصورة المتفردة ، المتألقة، الخصبة ، الغنية ، لعصر الرسالة.

ونعرف ، من ثم ، ان المنهج الذي اعتمده (الغزالي) هو المنهج العدل، وانه انبثاق مرسوم لرؤية اسلامية ترفض الجنوح في هذا الاتجاه او ذاك .

في التحليل الذي يميز الكتاب .. بمساحاته الواسعة ، بامتداده في كل اتجاه ، بملاحقته جل الوقائع واضاءتها او التعقيب عليها ، تبدو الاسلامية واضحة على اشد ما يكون الوضوح، بل تبدو شخصية (الغزالي) الذي هو في تركيبه الثقافي مفكر اكثر مما هو مؤرخ : الاحساس الايماني المرهف.. الجدل الذي يبلغ حد السيف في قدرته على القطع والحسم بمقولات عقلية متدافعة كالموج ، لا يمكن للخصم الا ان يستسلم لها .. الفقه الملم بمطالب الحركة الايمانية وشروطها ومقتضياتها .. الرؤية الواقعية التي ترفض الخيال والتحليق غير المبررين ، وتتحرك على ارضية المنظور وتتعامل مع سننه ونواميسه.. التحليل المقارن في التعامل مع الحدث عبر محاوره كافة : نفسية واجتماعية، وبيئية وتاريخية وحضارية وعقدية.. القدرة على استنطاق الواقعة وتوصيلها الى الوجدان البشري .. ثم .. حشد من "الجماليات" الاسلوبية في لغة العرض يستنفر لها (الغزالي) جل ادوات البلاغة العربية، فيجعل القارىء ، وهو يتابع التاريخ ، يطالع عرضا ادبيا يبلغ درجة الشاعرية احيانا في عذوبته وجماله.

(٨)

ولا اظن قارئا جادا لـ "فقه السيرة" يمكن ان ينسى تعقيب صاحبه على واقعة "احد" ، والاحساس المرير الحزين المترع بالشجن والاسى الذي يملأ روحه ويفعم وجدانه وهو يتابع لمسات (الغزالي) المؤثرة ، وقدرته على نقل القارىء الى المعركة لكي يعيش بصحبة اجداده الرواد من صحابة رسول الله ﷺ لحظات الهزيمة المرة وفراق الاحباب القاسي .. ولا اظنه الا وهو يتذكر كيف قدر المؤلف ، رغم هذه المرارات كلها ،

وربما بسببها ، ان يمسك بالخيوط كافة لكي يبين للناس ، بصرامة العقل المؤمن المستهدي بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام : ما الذي حدث على وجه التحديد ، ولماذا ؟ وكيف ؟ مما هو من مقتضيات البحث التاريخي الجاد.

وفي ظني ان تعقيب (الغزالي) على معركة احد يعكس تماما ، وبالنسب المتوافقة ، قدراته كمفكر واديب ، هذه القدرات التي تتحرك بكافة تفاصيلها ومعطياتها في دائرة الاسلامية التي يمكن تبينها بوضوح بمجرد ان نقارن هذا بما قاله – مثلا – (كايتاني) الايطالي، او (وات) البريطاني ، او (لامانس) الفرنسي ، او (بروكلمان) الالماني ، عن الحدث نفسه.

ففي الاسلامية يكون الانطلاق من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكون اللقاء الوثيق العميق بين المنظور والغيب ، وبين الدنيا والاخرة ، وبين الفناء والخلود ، وبين المتحوّل والثابت ، وبين السنن والاقدار .. ويصير التاريخ فرصة للتجربة يتعلم فيها الانسان من خلال فعله المتشكل في الزمن والمكان ، انى يكون الصراط .. ويغدو – كذلك – الساحة التي تختبر فيها عقيدة المنتمين وتتمحص لكي ينفى التراب والدخل ولا يتبقى –ثمة- الا الذهب الاصيل.

ولعل الاستشهاد ببعض مقاطع هذا التعقيب يكفي للدلالة على طريقة (الغزالي) في تفسير الحدث التاريخي ، والتعامل معه باعتباره يكتب فقها للسيرة لا مجرد تركيب لها او تحقيق:

"... كانت (معركة احد) امتحانا ثقيل الوطأة محض السرائر ومزق النقاب عن مخبوئها ، فامتاز النفاق عن الايمان ، بل تميزت مراتب الايمان نفسه فعرف الذين ركلوا الدنيا بنعالهم فلم يعرجوا على مطمع من مطامعها ، والذين مالوا اليها بعض الميل فنشأ عن اطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة..

"والدعوات ابان امتدادها وانتصارها تغري الكثير بالانضواء تحت لوائها فيختلط المخلص بالمغرض ، والاصيل بالدخيل . وهذا الاختلاط مضر اكبر الضرر

بسير الرسالات الكبيرة وانتاجها ، ومن مصلحتها الاولى ان تصاب برجات عنيفة تعزل الخبث عنها . وقد اقتضت حكمة الله ان يقع هذا التمحيص في احد ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾(١٥) .. ان الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بعزماتهم ، هم الذين صلوا هذه الحرب وحفظوا بها الاسلام في الارض ...

"ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما اصاب المسلمين في (احد)، عكس ما نزل في في (بدر) من آيات . ولا غرو فحساب المنتصر على اخطائه اشد من حساب المنكسر .. وقد اتجهت الايات الى مزج العقاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين المؤمنين، حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان الى قنوط يغلّ قواهم وحسرة تشل انتاجهم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١٦).ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ماجهلوا من سنن الدين والحياة . او يذكرهم بما نسوا من ذلك فبين ان المؤمن – مهما عظمت بالله صلته – فلا ينبغي ان يغترّ او يحسب الدنيا دانت له ، او يظن قوانينها الثابتة طوع يديه.

"كلا .. فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ اهدافه المرسومة، ويوم يحسب المسلم ان الايام كلها كتبت له ، وان شيئا منها لن يكون عليه ، وان امجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(١٧) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(١٨) ...

"ان الانسان – في عافيته – قد يتصور الامور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك الى المجازفة والخداع ، فليحذر المؤمن هذا الموقف وليستمع الى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ثم حادوا عنه لما جاء ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ

وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[١٩]. ثم عاتب الله عز وجل من سقط في ايديهم وانكسرت همتهم لما اشيع ان الرسول عليه الصلاة والسلام مات. ما كذلك يسلك اصحاب العقائد ! انهم اتباع مبادىء لا اتباع اشخاص ، ولو افترض ان الرسول صلى الله عليه وسلم قتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على اصحابه ان يثبتوا في مستنقع الموت ، وان يردوا المصير نفسه الذي ورده قائدهم لا ان ينهاروا ويتخاذلوا.

" ان عمل محمد عليه الصلاة والسلام ينحصر في اضاءة الجوانب المعتمة من فكر الانسان وضميره . فاذا ادى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستنير ان يعود الى ظلماته فلا يخرج منها؟

"لقد جمع محمد الناس حوله على انه عبد الله ورسوله ، والذين ارتبطوا به عرفوه اماما لهم في الحق وصلة لهم بالله . فاذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٢٠]..

"ولعل ما ترتب على عصيان الاوامر في هذه الموقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي لا يحكمها امر واحد ، او التي تغلب على افرداها وطوائفها النزعات الفردية النافرة ، لا تنجح في لقاء ، بل لا تشرف نفسها في حرب او سلام . والامم كلها ، مؤمنها وكافرها ، تعرف هذه الحقيقة ، ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة. وعندما تشتبك امة في حرب تجعل احزابها جبهة واحدة واهواءها رغبة واحدة وتخمد كل تمرد او شذوذ ينجم في صفوفها...

"ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الامور ، بين الله لهم انهم هم مصدرها ، فما اخلفهم موعدا ولا ظلمهم حقا ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢١] ان الاسلام يشترط لكمال العمل وقبوله ، الايمان والاحتساب والتجرد .

"ان معركة (احد) تركت اثارا غائرة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام ظلت تلازمه الى آخر عهده بالدنيا . في هذا الجبل الداكن الجاثم حول (يثرب) اودع (محمد) صلى الله عليه وسلم اعز الناس عليه ، واقربهم الى قلبه . فالصفوة النقية التي حملت اعباء الدعوة ، وعادت في سبيل الله الاقربين والابعدين ، واغتربت بعقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وانفقت وقاتلت وصبرت وصابرت . هذه الصفوة اختط لها القدر مثواها الاخير في هذا الجبل الاشم فتوسدت ثراه راضية مرضية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتذكر سير اولئك الابطال ومصائرهم فيقول: ((احد جبل يحبنا ونحبه)) .

"فلما حانت وفاته جعل اخر عهده بذكريات البطولة ، ان يزور قتلى (احد) وان يدعو الله لهم ، وان يعظ الناس بهم . عن عقبة بن عامر قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى (احد) بعد ثماني سنين كالمودع للاحياء والاموات . ثم طلع المنبر فقال : اني بين ايديكم فرط . وانا عليكم شهيد . وان موعدكم الحوض ، واني لأنظر اليه من مقامي هذا . واني لست اخشى عليكم ان تشركوا ، ولكن اخشى عليكم الدنيا ان تنافسوها .. قال عقبة : فكان آخر نظرة نظرتها الى رسول الله..."[٢٢].

ان هذا يكفي شاهدا على ما نحن بصدده ، ويبقى الكتاب كله بين يدي من يريد الاستزادة ، فان في صفحاته التي تتجاوز الخمسمائة عددا ، عشرات المقاطع ، بل مئاتها ، مما يمكن ان يعتبر – بحق – اضافة قيمة لحقل "السيرة" الذي قيل فيه الكثير ، وهو – مع ذلك – لا يزال ينتظر المزيد[٢٣] .

الهوامش

(١) فقه السيرة ، الطبعة السادسة ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة - ١٩٦٥م.

(٢) انظر الصفحات ٣٦ - ٤٦ لمتابعة وجهة نظر المؤلف في هذه المسألة.

(٣) (٤) (٥) نفسه ص٤.

(٦) (٧) نفسه ص٥

(٨) نفسه ص٧.

(٩) السيرة النبوية، ص٣ من مقدمة عبد الله الانصاري للطبعة التي عني باخراجها، المطبعة العصرية، صيدا (لبنان)- ١٩٧٦م.

(١٠) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ، بحث (المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات) الجزء الاول ص١١٥ -٢٠١ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض - ١٩٨٥م.

(١١) محمد رسول الله ، مقدمة سليمان ابراهيم الجزائري ص ٢٧ - ٣٤ ، الطبعة الثالثة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة - ١٩٥٩.

(١٢) (١٣) فقه السيرة ص ٤٦ ، ٤٧.

(١٤) نفسه ص ٤٩ -٥٠.

(١٥) سورة آل عمران الاية ١٧٩.

(١٦) سورة آل عمران الايات ١٣٧ -١٣٩.

(١٧) سورة آل عمران الاية ١٤٠.

(١٨) سورة آل عمران الاية ١٤٢.

(١٩) سورة آل عمران الاية ١٤٣ .

(٢٠) سورة آل عمران الاية ١٤٤.

(٢١) سورة آل عمران الاية ١٦٥.

(٢٢) فقه السيرة ، مقتطفات من الصفحات ٢٨٠ – ٢٩٢.

(٢٣) يمكن احالة القاريء على نماذج اخرى من مداخلات المؤلف مع وقائع السيرة من مثل : حادثة شق الصدر ص ٦٤ – ٦٦ ، العزلة في غار حراء ص ٨٨- ٩٠ ، المعارضة الوثنية ص١٠٤ – ١٠٦، سني الحصار ص ١٢٣ – ١٢٦ ، الاسراء والمعراج ص ١٣٤ – ١٤٦ ، بيعة العقبة الكبرى ص١٥٩ – ١٦٢ ، طلائع الهجرة ص١٦٣- ١٦٥ ، الاخاء ص ١٩١- ١٩٥ ، السرايا ص٢٢٨٢٢٩، ٢٣١- ٢٣٢ ، غنائم بدر واسراها ص٢٥٠- ٢٥٥ ، الصراع مع اليهود ص ٢٥٧- ٢٦٢ ، الخندق ص ٣١٨- ٣٢٢ ، مكاتبة الملوك ص ٣٩١ –٣٩٣ ، غنائم هوازن ص٤٢٨- ٤٣٠، تبوك ص ٤٣٥- ٤٤٢، تصفية الوجود الوثني ص ٤٥٢- ٤٥٥ ، امهات المؤمنين ص٤٦٦ – ٤٨٤.

الشهيـــد

(سـيد قطـب)

و

" عصر الرسالة "

عالج الشهيد سيد قطب عصر الرسالة بالتفصيل في كتابه الضائع (في ظلال السيرة) والذي يمكن ان نجد قطعا منه (في ظلال القرآن) بحكم تفسير الايات والمقاطع والسور المتعلقة بهذا العصر ، كما تناول جوانب من العصر نفسه في كتابه الاخر (معالم في الطريق) ، الذي نجد مساحات واسعة منه – كذلك – في (الظلال) ، كما تشير الهوامش نفسها[١٣] ، وارتد في الكتابين معا الى العصر الجاهلي بحكم الارتباط بين العصرين سلبا وايجابا.

فما هي ملامح المنهج الذي اعتمده في عرضه لجوانب من السيرة ؟ وما هي الموضوعات التي عالجها في هذا المجال؟

من خلال تفسير (سيد قطب) لثلاث من سور القرآن التي تناولت عددا من المعارك اتي شهدها عصر الرسالة وهي : (الانفال) التي تحدثت عن معركة (بدر) ، و (الاحزاب) التي عرضت للمعركة التي تحمل الاسم نفسه ، و (التوبة) التي افاضت في

---

(١٣) انظر (في ظلال القرآن) ، الطبعة الثالثة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (بدون تاريخ) ، هامش ١ جزء ١١ صفحة ٧١ ، و(معالم في الطريق) ، الطبعة السادسة ، دار الشروق ، القاهرة - ١٩٧٩، هامش ١ صفحة ١٠.

الحديث عن ملابسات معركة (تبوك) ، تلك السور التي تخصص مساحات واسعة من سياقها للواقعة التاريخية التي تشكلت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، يمكن ان نضع ايدينا على الملامح الاساسية التي تميز معطيات سيد في هذا المجال.

في تفسيره للمقاطع الخاصة بمعركة (بدر) من سورة (الانفال) يسعى سيد الى تقديم عرض مجمل لاحداث المعركة قبل استعراض الايات التي نزلت فيها " وذلك لكي ندرك مرامي النصوص فيها ، وواقعيتها في مواجهة الاحداث من ناحية ، وتوجيهها للاحداث من الناحية الاخرى . ذلك ان النصوص القرآنية لا تدرك حق ادراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب ، انما تدرك وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي ، وفي واقعيتها الايجابية ، وتعاملها مع الواقع الحي وهي – وان كانت ابعد مدى وابقى اثرا من الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه – لا تتكشف عن هذا المدى البعيد الا في ضوء ذلك الواقع التاريخي، ثم يبقى لها ايحاؤها الدائم وفاعليتها المستمرة ، ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت عليهم هذه النصوص اول مرة ، ويواجهون من الظروف والاحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون.." (١٤).

ويبدأ سيد باعتماد رواية ابن اسحق (التي هذبها ابن هشام فيما بعد) عن احداث المعركة مهمشا اياها بالملاحظة التالية التي تشير الى مدى حرص سيد على الالمام بالمصادر الاساسية للسيرة ، وعلى تنويع الموارد التاريخية لتفسيره:

"اعتمد ابن كثير على ابن اسحق في روايته للغزوة في كتابه (البداية والنهاية)، ولم يفترق المقريزي في (امتاع الاسماع) عن هذه الرواية في كثير ، وكذلك رواها باختصار الامام ابن الجوزية في (زاد المعاد) والامام ابن حزم في (جوامع السيرة) ، وقد استقينا من جميعها" (١٥).

---

(١٤) الظلال ٩/٢٠٢.

(١٥) الظلال ٩/٢٠٣ هامش ١ بالنسبة لابن كثير يبدو ان سيد اعتمد تفسيره للقرآن اكثر من كتابه (البداية والنهاية) كما يبدو من متابعة استشهاداته المتعلقة به (انظر الظلال ٩/٢٣٢ ، ٢٥٢، ٢٧٩) ، ولعله افاد من تاريخ ابن كثير

ولا يشير سيد الى مصادر السيرة الاساسية الاقدم عهدا ، فيما عدا ابن اسحق، من مثل تاريخ الطبري ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وانساب البلاذري . ويبدو ان اعتماده ينصب على الطبقة التالية بسبب من اهتمامها المشترك الذي يجمع التاريخ الى التفسير.

يعني سيد ، وهو ينقل رواية ابن اسحق ، بسلاسل اسناده في محاولة لتوثيق الرواية من جهة ، وبتأثر منه بمدرسة الحديث من جهة اخرى[١٦]، ثم ما يلبث ان يقطع رواية ابن اسحق بقطعة من رواية المقريزي في (امتاع الاسماع)[١٧] ثم يرجع ثانية الى ابن اسحق[١٨]، لكي ما يلبث ان يقطع السياق ثانية بجانب من رواية المقريزي[١٩]، ثم يرجع كرة اخرى الى ابن اسحق ، وهكذا يستمر الاعتماد المزدوج على المؤرخين المذكورين حتى نهاية العرض[٢٠].

ويختتم سيد عرضه الموجز لاحداث الموقعة بهذه العبارة " في هذه الغزوة التي اجملنا عرضها بقدر المستطاع ، نزلت سورة الانفال ، نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، وتكشف عن قدر الله وتدبيره في وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله ، وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وباسلوب القرآن المعجز"[٢١].

ولا يفوت سيد وهو يلج لتفسير مقاطع النص القرآني عن المعركة ان يعتمد ، فضلا عن المؤرخين ،على كتب الحديث ، وبخاصة الصحاح ، والمسانيد ، لطرح بعض

عبر استعراضه لوقائع المعركة دون اشارة الى مظان الاعتماد ، فقد تكون مجرد قراءة لمزيد من الالمام بتفاصيل المعركة ، ولتوثيق ما اورده ابن اسحق والمقريزي.

(١٦) الظلال ٢٠٢/٩ – ٢٠٤ .

(١٧) نفسه ٩/ ٢٠٤ – ٢٠٦.

(١٨) نفسه ٢٠٦/٩.

(١٩) نفسه ٢٠٦/٩ – ٢٠٩.

(٢٠) نفسه ٢٠٩/٩ – ٢١٨.

(٢١) نفسه ٢١٨/٩.

التفاصيل التاريخية التي تزيد (التفسير) اضاءة وتمنحه المزيد من الادلة الواقعية ، فهو يعتمد — على سبيل المثال — روايتين للامام احمد بسندهما[٢٢] ورواية للحافظ ابي بكر بن مردويه باسناده[٢٣]، ورواية اخرى للامام احمد باسناده[٢٤] ورابعة باخراج البخاري[٢٥]، وخامسة للامام احمد بسنده كذلك[٢٦] وسادسة للامام مالك في الموطأ باسناده[٢٧]، وروايتين اخريتين عن الامام احمد باسنادهما[٢٨].

وفي تفسيره للمقاطع الخاصة بغزوة الاحزاب ، يمهد سيد لاعتماد النصوص التاريخية بهذه الكلمات "لكي ندرك طريقة القرآن الخاصة في العرض والتوجيه ، فاننا قبل البدء في شرح النص القرآني نثبت رواية الحادث كما عرضتها كتب السيرة — مع الاختصار المناسب- ليظهر الفارق بين سرد الله سبحانه وسرد البشر للوقائع والاحداث"[٢٩].

ويبدأ – بعدئذ – باعتماد نص طويل نسبياً عن محمد بن اسحق [٣٠] يتخلله هامشان يتضمنان بعض الاضافة ، احدهما عن (امتاع الاسماع) للمقريزي ، والاخر مسند الى ام سلمة رضي الله عنها دون اشارة الى المصدر الذي ورد فيه.

بعد ذلك يعقب سيد بتقديم تصور مقارن بين نص المؤرخين القدامى ونص القرآن عن الحادث نفسه "ان النص القرآني يغفل اسماء الاشخاص ، واعيان الذوات ، ليصور نماذج البشر وانماط الطباع . ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ليصور

(٢٢) نفسه ٢٣٣/٩.

(٢٣) نفسه ٢٤٥/٩.

(٢٤) نفسه ٢٤٩/٩.

(٢٥) نفسه ٢٥٠/٩.

(٢٦) نفسه ٢٧٨/١٠.

(٢٧) نفسه ٢٨/١٠ .

(٢٨) نفسه ٢١ /٦٠ - ٦١.

(٢٩) نفسه ١٣٤/٢١.

(٣٠) نفسه ١٣٤/٢١ –١٣٨

القيم الثابتة والسنن الباقية ، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الاشخاص ، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل . ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الاحداث والاشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالاصل الكبير.

"ومع انه كان يقص القصة على الذين عاشوها ، وشهدوا احداثها ، فانه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم اصحابها وابطالها ! ويلقي الاضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ، ويكشف للنور الاسرار والنوايا والخوالج المستكنة في اعماق الصدور ، ذلك الى جمال التصوير وقوته ، وحرارته..

"ان النص القرآني معد للعمل ، لا في وسط اولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب ، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ . معد للعمل في النفس البشرية اطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث او شبهه في الاماد الطويلة ، والبيئات المنوعة، بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الاولى..

"ان القرآن ليس كتابا للتلاوة ولا للثقافة ، انما هو رصيد من الحيوية الدافعة وايحاء متجدد في المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب ، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب...." [٣١] .

ثم يبدأ – بعدئذ – في تفسير مقاطع النص القرآني ، مقطعا مقطعا ، وهو خلال ذلك يعود فيعتمد على بعض النصوص التاريخية ، الاقصر مساحة هذه المرة ، مشيرا الى صاحب المصدر حينا ، غير مشير اليه حينا اخر . فنحن نجد مثلا كيف انه – في احد المقاطع- يعتمد نصا عن محمد بن مسلمة دون اشارة الى المصدر الذي ورد

[٣١] نفسه ١٤٠/٢١ –١٤٢.

فيه ، بعده مباشرة يرد اعتماد آخر عن (امتاع الاسماع) للمقريزي ، يتخلله هامش يتضمن رواية عن جابر مع اغفال المصدر الذي وردت فيه . وينتهي تفسير المقطع باعتماد نص اخر يبنى فيه الراوي للمجهول، وذلك بعبارة "لقد روي"[٣٢].

في المقطع التالي يعتمد سيد نصا موجزا لابن هشام (من رواية ابن اسحق بطبيعة الحال)[٣٣]. وفي مقطع ثالث يورد سيد بعض الوقائع التاريخية عن معركة الخندق دون اشارة الى مصدرها ، ثم ما يلبث ان يعطف عليها باعتمادين محددين احدهما لابن اسحق والاخر للمقريزي في (امتاع الاسماع)[٣٤].

ومرة اخرى لا يفوت سيد اعتماد كتب الحديث ، وبخاصة الصحاح والمسانيد ، لتقديم بعض التفاصيل التاريخية التي تزيد (التفسير) اضاءة وتعززه بالادلة الواقعية . انه في مقطع آخر من تفسير سورة الاحزاب يعتمد رواية للامام احمد -باسناده- عن ثابت (وقد رواها كذلك مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة)[٣٥] .

لا يكتفي سيد بطرح هذه الصيغ في التعامل مع (التاريخ) ولكنه يتجاوز احيانا الاعتماد المباشر للنصوص فيكتفي باستقرائها ومتابعتها لكي ما يلبث ان يستخلص منها الخطوط العريضة للوقائع والاحداث فيعرضها ، مركزة موجزة باسلوبه الخاص[٣٦]. وقد يعززها ببعض النصوص (الحرفية) كما ورد في نهاية عرضه المذكور عن مسيرة العلاقات بين القوى اليهودية - في المدينة - وبين المسلمين ، فيورد

---

(٣٢) نفسه ١٤٣/٢١.

(٣٣) نفسه ١٤٦/٢١ -١٤٨.

(٣٤) نفسه ٢١ / ١٥٠ -١٥١.

(٣٥) انظر الظلال ١٥٢/٢١ - ١٥٣.

(٣٦) نفسه ٢١ /١٥٣ -١٥٤.

ثلاث روايات ، اثنتين لابن هشام والثالثة لابن اسحق[٣٧] ويعقبها بنص طويل نسبيا عن ابن اسحق كذلك[٣٨].

في المقاطع الخاصة بغزوة (تبوك) – عام ٩هـ – ومقدماتها وملابساتها من سورة التوبة ، يعتمد سيد المنهج نفسه فيسعى الى استعراض بعض ظروف الغزوة وملابساتها ليجعلنا "نعيش في جوها الذي يقرر الله سبحانه انه كان (ساعة العسرة) ، ولندرك طبيعة الانفعالات والحركات التي صاحبتها"[٣٩] . وهو يسعى الى تقديم عرض ملخص يعتمد فيه (سيرة) ابن هشام (المنقحة عن ابن اسحق)، و (امتاع الاسماع) للمقريزي ، و (البداية والنهاية) لابن كثير، فضلا عن تفسيره[٤٠].

ويختتم سيد استعراضه بما يؤكد رغبته في اعتماد مفهوم المعايشة التاريخية التي تسعى الى وضع القاريء في (مناخ) الحدث لكي يكون اقرب الى نبضه واكثر قدرة على ادراك نسيجه ومؤثراته . ان "هذا الاستعراض يصور لنا اليوم كيف كانت (العسرة) ، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة ، يتجلى فيها تفاوت المقامات الايمانية ، من اليقين الجاد عند طائفة ، الى الزلزلة والارجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة ، الى القعود والتخلف – بغير ريبة – عند طائفة ، الى النفاق الناعم عند طائفة . الى النفاق الفاجر عند طائفة ، الى النفاق المتآمر عند طائفة .. مما يشي اولا بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة ، ويشي ثانيا بمشقة الغزوة – في مواجهة الروم ومع العسرة – هذه المشقة المحصة الممتحنة الكاشفة ، والتي لعل الله سبحانه قد قدرها من اجل التمحيص والكشف والتمييز"[٤١] .

---

(٣٧) نفسه ٢١ / ١٥٥ – ١٥٧.

(٣٨) نفسه ٥٥/١١.

(٣٩) نفسه ٥٥/١١ –٦١.

(٤٠) نفسه ٥٥/١١- ٦١.

(٤١) نفسه٦١/١١.

ونلمس لدى سيد نزوعا نقديا مقارنا وهو يطرح رواية لابن كثير اوردها في (البداية والنهاية) تتحدث عن محاولة فاشلة قام بها جماعة من المنافقين لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم خلال عودته من تبوك . وقال بان ابن اسحق اوردها في سيرته . ويذكر سيد بانه لم يجد رواية كهذه فيما رواه ابن هشام عن ابن اسحق في السيرة[٤٢]، ويتساءل المرء : الا يجوز ان يكون ابن اسحق قد اوردها فعلا ثم اسقطها ابن هشام في تهذيبه الذي اعتمده سيد هاهنا؟

وسيد يرجع هنا ، انسجاما مع منهجه ، الى كتب الحديث لتقديم المزيد من التفاصيل ذات البعد التاريخي ، ونجده يورد النص الكامل لقصة كعب بن مالك المعروفة عن الثلاثة الذين تخلفوا فيما اخرجه الامام احمد والبخاري ومسلم باسنادهم[٤٣].

نخلص من هذا الى ان سيد اعتمد في معطياته التاريخية عن السيرة منهجا يكاد يكون واحدا في سائر هذه المعطيات ، ويقوم على البدء بفرش الارضية التاريخية للسورة او المقطع ذي البعد التاريخي ، معتمدا في ذلك على عدد من المصادر التاريخية ، مستمدا منها نصوصا قد تقصر وقد تطول ، بقدمها بحرفيتها حينا وبنوع من الايجاز والتحويل حينا اخر . وقد يكتفي بمصدر واحد او يلجأ الى اعتماد اكثر من مصدر ، وهو في هذه الحالة يرتب النصوص او يجعل احدها يقطع الاخر وفق اهميته ، وقد يسعى الى مزج مادة المصادر القديمة لكي يصوغ منها رواية واحدة متماسكة تعتمد لغة المصادر نفسها قدر الامكان.

ويلاحظ القارئ ان سيد لا يحاول توسيع نطاق مصادره التاريخية او اغنائها ، وانما يكتفي بالعدد المحدود منها ، كما انه لا يسعى الى عقد مقارنة بين بعضها والبعض الاخر ، ولا يمارس ازاءها – الا نادرا – تعليقا او تعقيبا او نقدا ، وهو لا يلتفت

---

(٤٢) نفسه ١١/٦٠ وهامشها.

(٤٣) نفسه ١١/٦٢ – ٦٦.

الى ما يمكن ان تقدمه الدراسات الحديثة من اضاءات مهمة على احداث السيرة وتفاصيلها منهجا وموضوعا .

وقد لا يجد المرء صعوبة كبيرة في البحث وراء هذا كله ، سيما اذا تذكر قدرة هذا العقل الفذ على المقارنة والتحليل والنقد والاستشراف الشمولي والنزعة الاكاديمية التي تهندس وتضبط فلا يكاد يفلت من بين يديها شيء ذو قيمة. لكن الامر ها هنا يختلف . ان الرجل لا يريد ان يكتب تاريخا او يحقق واقعة من وقائعه ، ولكنه يسعى الى تفسير للمعطيات القرآنية ذات المادة التاريخية . ويكفيه في هذه الحالة ان يسرد هذه الرواية او تلك ، ويعتمد هذا المصدر او ذاك لتقديم الخطوط العريضة المتفق عليها من الوقائع التاريخية ، موجها جهده بعد هذا لتحليل نسيج المعطيات القرآنية التي لا يعد (التاريخ) شرطها الاول والاخير ، بل هو واحد من جملة شروط كان سيد حريصا على الاخذ بها جميعا . ومن ثم نجده يعتمد سائر الاساليب والعلوم الموصلة او المساعدة للتحقق بادراك أعمق للمادة القرآنية . وهكذا يلجأ الرجل الى علوم التفسير والحديث ، والى العلوم الانسانية ، بل انه يلجأ حتى الى كتب الفيزياء والكيمياء وعلوم النبات والحيوان والطبيعة . وهو ليس ملزما عبر هذا كله بالتحقيق والتدقيق، وانما بالافادة من النتائج شبه النهائية المتخمضة عن الانشطة المتواصلة في هذه الحقول ، فما هي جميعا الا ادوات فحسب لهدف اوسع واشمل واكثر امتدادا : تفسير كلمات الله .

ومن هنا فإن احدا لا يستطيع ان يطالب سيد بتنفيذ مقولات (المنهج) الذي دعا اليه في كتابة التاريخ الاسلامي ، والذي سبق وان عرضنا له في غير هذا المكان ، على معطياته في حقل السيرة لأن هذه المعطيات ليست بحثا تاريخيا بالمعنى الاكاديمي، كما انه لم يكن في نية سيد ان يصير مؤرخا ها هنا ، بل مفسرا لكتاب الله ، هنالك حيث تصير البداهات والحقائق التاريخية شبه النهائية ، لا التحليل والتركيب التاريخيين ، مجرد ادوات مساعدة ، او موصلة ، للتحقق بهذا الهدف الشمولي الكبير .

والحق ان جانب الابداع التاريخي في معطيات سيد عن السيرة لا يتمثل بهذه الاعتمادات (الاداتية) على المصادر التاريخية القديمة ، وانما في شيء آخر يكاد يتميز به الرجل فيمثل واحدة من نقاط تألقه في حقل العمل التاريخي ، ذلك هو محاولته بلورة صيغ ومبادىء الحركة التاريخية ، في هذا الجانب او ذاك من جوانب السيرة ، وفق قوانين ونظم معينة ، بعد لم شتات الوقائع والاحداث في نسق معين وسياق معلوم . فكما ان الرجل قدم تفسيرا اسلاميا للتاريخ البشري ، سبق وان وضعنا ايدينا على بعض ملامحه في كتاب (المنظور التاريخي في فكر سيد قطب)، فإنه يحاول هنا ان يفسر بعض وقائع التاريخ الاسلامي (مرحلة الجذور او عصر الرسالة)، لكي ما يلبث ان يمنحها هندستها الحركية فيمنحنا القناعات المنطقية بصيرورتها وفق هذه الصيغة او تلك . ليس هذا فحسب ، بل انه يقدم للحركة الاسلامية عبر الاماكن والازمان ، صيغ عمل تاريخي مبرمج مرسوم ، يستمد سداه ولحمته من عصر الرسول المعلم عليه افضل الصلاة والسلام ، وعصر صحابته الكرام رضوان الله عليهم اجمعين.

ونظرا للاهمية الحركية البالغة لهذه المعطيات ، فقد قام سيد بنقل اقسام كبيرة منها ، من (الظلال) الى (المعالم) ، بعد ان زادها بلورة وهندسة وتركيزا ، لكي تكون – بحق – معالم على طريق الحركة الاسلامية في كل زمن ومكان[٤٤].

ويكفي ان نرجع الى (تحليله) لتركيب المجتمع الاسلامي وتطوره (التاريخي) المستمر منذ لحظات الدعوة الاولى وحتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلسلة الافعال وردود الافعال التي شهدها هذا المجتمع عبر مسيرته الطويلة تلك ، فيما عرضه سيد وهو بصدد تفسير المقطع الاول من سورة التوبة ، ذلك الذي يتضمن احكاما نهائية في العلاقات بين الامة المسلمة وسائر الامم في الارض ، كما يتضمن تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته واوضاع كل طائفة فيه وكل فئة من فئاته.

---

(٤٤) انظر على وجه الخصوص الفصول التالية من كتاب (معالم في الطريق) "طبيعة المنهج القرآني" "الجهاد في سبيل الله" ، و"نشأة المجتمع المسلم وخصائصه".

يكفي ان نرجع الى هذا التحليل الذي يفرشه سيد على مدى ثلاث عشرة صفحة من تفسيره ، لكي يتبين لنا صدق هذه المقولة . ولن يتسع المجال – بطبيعة الحال – لاستعادة هذا التحليل كله ولكننا سنجتزيء منه بعض مقاطعه الاساسية.

"يرسم سياق السورة صورة كاملة للمجتمع المسلم في فترة ما بعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوي ، وفي هذه الصورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الايمانية.. والخلط وعدم الوضوح في تصور العلاقات بين المعسكر الاسلامي والمعسكرات الاخرى ، وعدم المفاصلة الكاملة على اساس العقيدة – وان كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والانصار – مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير ، تشي بحاجة المجتمع اليها.

"ولقد سبق وان اشرنا اجمالا الى ان سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس في الاسلام بعد الفتح ، لم تتم تربيتها ، ولم تنطبع بعد بالطابع الاسلامي الاصيل . إلاّ ان هذه الاشارة المجملة لا يمكن فهمها بوضوح الا بمراجعة الواقع التاريخي الحركي قبل الفتح وبعده . وسنحاول ان نلم به هنا باشد اختصار ممكن قبل التعليق بشيء على دلالة هذا الواقع التاريخي ومغزاه ، ودلالة النصوص القرآنية التي وردت في سياق هذه السورة كذلك.

"لقد ولدت الحركة الاسلامية في مكة على محك الشدة ، فلم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش – تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة (ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله) وما تمثله من ثورة على كل سلطان ارضي لا يستمد من سلطان الله ، ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الارض والفرار منه الى الله . ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي انشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الاول بالطاعة لله ولرسول الله ، ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والاوضاع السائدة في هذه الجاهلية.

"لم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش اول الامر - تحسّ بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة والتجمع الجديد والقيادة الجديدة ، وحتى ارصدت لها كل ما في جعبتها من اذى وكيد وفتنة وحيلة.

"لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه . وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة الى ربوبية الله للعالمين ، في مجتمع جاهلي يقوم على اساس من ربوبية العباد للعباد ، وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد ، يتبع في تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض!

"وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الاسلامي الجديد للاذى والفتنة بكل صنوفها ، الى حد اهدار الدم في كثير من الاحيان . ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة ان لا اله الا الله ،وان محمدا رسول الله ، والانضمام الى التجمع الاسلامي الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، الا كل من نذر نفسه لله ، وتهيا لاحتمال الاذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في ابشع الصور في بعض الاحيان.

"بذلك تكونت للاسلام قاعدة صلبة من اصلب العناصر عودا في المجتمع العربي ، فاما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت الى الجاهلية مرة اخرى ، وكان هذا النوع قليلا ، فقد كان الامر كله معروفا مكشوفا من قبل ، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية الى الاسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب الا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين.

" وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة ، مع السابقين من الانصار الذين وان كانوا لم يصطلوها في اول الامر كما اصطلاها المهاجرون ، الا ان بيعتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - (بيعة العقبة) قد دلت على ان عنصرهم ذو طبيعة اصيلة مكافئة لطبيعة هذا

الدين ... ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ، ولا يرتقبون من ورائها شيئا الا الجنة ، ويوثقون هذا البيع فيعلنون انهم لا يقبلون ان يرجعوا فيه ولا ان يرجع فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلمون انهم لا يبايعون على امر هين ، بل كانوا مستيقنين ان قريشا وراءهم ، وان العرب كلها سترميهم ، وانهم لن يعيشوا بعدها في سلام مع الجاهلية الضاربة الاطناب من حولهم في الجزيرة وبين ظهرانيهم في المدينة... فلا جرم ان يكونوا مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء واعدوا هذا الاعداد ، هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم اول العهد بالمدينة.

"ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . لقد ظهر الاسلام وفشا في المدينة واضطر افراد كثيرون - ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم- ان يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم . حتى اذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله ابن ابي ابن سلول : هذا امر قد توجّه ! واظهر الاسلام نفاقا . ولابد ان كثيرين قد جرفتهم الموجة ، فدخلوا في الاسلام تقليدا – ولو لم يكونوا منافقين –ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الاسلام ولا انطبعوا بطابعه، مما انشأ تخلخلا في بناء المجتمع المدني ناشئا عن اختلاف مستوياته الايمانية . وهنا اخذ المنهج القرآني التربوي الفريد بقيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة، ويعمل كذلك على اعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد.

"وحين نراجع السور المدنية – بترتيب النزول التقريبي – فاننا نطلع على الجهد الكبير الذي بذل في عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم ، وبخاصة ان هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع – على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ، ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد – وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة.

"ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين – وبخاصة في فترات الشدة – اعراض من الضعف ، والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر . وبصفة خاصة اعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من اهل الجاهلية . والنصوص القرآنية في السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الاعراض التي كان المنهج القرآني يتعرض لها بالعلاج بشتى اساليبه الربانية الفريدة"(٤٥).

"...الا ان قوام المجتمع المسلم في المدينة كاد يظل سليما في جملته بسبب اعتماده اساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والانصار، وما تحدثه من تماسك وصلابة في قوامه في وجه جميع الاعراض والظواهر والخلخلة احيانا والتعرض للمخاطر التي تكشف عن هذه العناصر التي لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها.

"وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين والمترددين ، وممن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على اساسه كل علاقاتهم مع الاخرين. حتى اذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الاسلامي اقرب ما يكون الى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة.

"نعم انه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك اقدار متفاوتة انشأتها الحركة العقيدية ذاتها ، فتميزت مجموعات من المؤمنين باقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها . تميز السابقون الاولون من المهاجرين والانصار . وتميز اهل بدر . وتميز اصحاب بيعة الرضوان في الحديبية . ثم تميز بصفة عامة الذين انفقوا قبل الفتح وقاتلوا. وجاءت النصوص القرآنية والاحاديث النبوية ، والاوضاع العملية في المجتمع المسلم،

---

(٤٥) انظر : الانفال ٥- ٨ ، آل عمران ٧- ٩ ، الحشر ١١- ١٢ ، الاحزاب ٩- ١٤، النساء ٧١- ٧٣ ، ٧٧- ٧٨ ، محمد ٣٦ –٣٨ ، المجادلة ١٤ –٢٢ ، المائدة ٥١ –٥٣، المتحنة١- ٤.

تؤكد هذه الاقدار التي انشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها[٤٦] ولكن تميز هذه الطبقات ... لم يكن مانعاً من ان تتقارب المستويات الايمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح ، وان يتوارى الكثير من اعراض الخلخلة في الصف والكثير من ظواهر الضعف والتردد .. وعدم الوضوح العقيدي ، والنفاق .. من ذلك المجتمع ، بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الاسلامية.

"الا ان فتح مكة في العام الثامن الهجري وما اعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف ، وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة ، قد عاد فصب في المجتمع المسلم افواجا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الايمانية ، وفيهم كارهون للاسلام منافقون ، وفيهم المنساقون الى الاسلام الظاهر القاهر ، وفيهم المؤلفة قلوبهم ، دون انطباع بحقائق الاسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.

"لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الاسلام في الجزيرة العربية ، فقد كانت قريش هي صاحبة الكلمة العليا في الشؤون الدينية في الجزيرة – فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادي وسياسي وادبي كذلك – فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد ، بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب في انحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، او على الاقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تتجلي المعركة بين قريش وهذا النبي من ابنائها . فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوزان وثقيف في الطائف ، وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية في المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا ، فاجليت بنو قينقاع وبنو النضير الى الشام ، وابيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الاخير ، كان ذلك ايذانا بدخول الناس في دين الله افواجا ، وانسياح الاسلام في ارجاء الجزيرة كلها في خلال عام واحد.

---

(٤٦) انظر : التوبة ١٠٠ ، الفتح ١٨ –١٩ ، الحديد ١٠.

"غير ان هذا الاتساع الافقي في رقعة الاسلام قد اعاد معه جميع الاعراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد انتصار بدر – ولكن على نطاق اوسع – بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير ، في خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى . ولولا ان المجتمع المدني بجملته كان قد تحول الى ان يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والاساس الركين لهذا المجتمع ، لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الافقي السريع في رقعة الاسلام في الجزيرة . ولكن الله الذي كان يدبر لهذا الامر ويرعاه ، كان قد اعد العصبة المؤلفة من السابقين الاولين من المهاجرين والانصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء به انتصار بدر ، كما انه – سبحانه – كان قد اعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذي جاء به فتح مكة ، والله اعلم حيث يجعل رسالته.

"واول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين .. كذلك كان ما ظهر في اثناء غزوة تبوك من الاعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الافقي السريع ، ودخول تلك الافواج الجديدة بمستوياتها الايمانية والتنظيمية المخلخلة ... ونستطيع ان نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخي للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح ، عندما قبض رسول الله - ﷺ- فارتدت الجزيرة العربية كلها ولم يثبت الا مجتمع المدينة – القاعدة الصلبة الخالصة – فهذه الظاهرة يسهل الان تفسيرها . ان عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الاسلام في نفوس هذه الافواج الكثيرة التي دخلت في دين الله بعد الفتح ، بمستوياتها الايمانية المخلخلة ، فلما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ارتجت الجزيرة المخلخلة وثبتت القاعدة الصلبة ، واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها ان تقف في وجه التيار ، وان ترده عن مجراه الجارف ، وان تحوله الى الاسلام مرة اخرى.

"ان رؤية هذه الحقيقة – على هذا النحو – كفيلة بان ترينا تدبير الله الحكيم في المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة – في اول الامر – وحكمته في

تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها ، ويفتنونها عن دينها ، ويهدرون دماءها ، ويفعلون بها الافاعيل.. لقد كان الله سبحانه يعلم ان هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الاولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة ، وانه بدون هذه المحنة الطويلة لا تصلب الاعواد ولا تثبت للضغوط ، وان هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والاصرار والمضي في سبيل الله على الاذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع ، وقلة العدد ، وانعدام النصير الارضي ، ان هذه الدرجة هي وحدها التي تصلح للقاعدة الاصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاقة الاولى ....."[٤٧].

ولن يتسع المجال — مرة اخرى — لتقديم المزيد من الشواهد على قدرة سيد على هندسة الحركة التاريخية، او بعبارة ادق ، اكتشاف القوانين الهندسية للحركة التاريخية من منظورها الاسلامي . ونكتفي بان نحيل القارىء الى شاهدين آخرين منها من بين حشد كبير من الشواهد : تحليل سيد لمسألة العقيدة في العصر المكي[٤٨]، عبر تمهيده لتفسير سورة الانعام، ومناقشته لمسألة الجهاد في العصر المدني[٤٩]، عبر تمهيده لتفسير سورة الانفال .

فلا عجب – اذن – ان ينقل سيد هذين الشاهدين الى كتابه (معالم في الطريق) لكي يعينا على اغناء الحركة الاسلامية بمزيد من الاضاءة المركزة المستمدة من قوانين الحركة التاريخية في اطارها الاسلامي ، وتمكينها من مواصلة المسير.

---

(٤٧) انظر بالتفصيل : الظلال ١٠/٩٠ –١٠٣.

(٤٨) نفسه ١٠/٧٧- ٩٤ ، وانظر : معالم في الطريق ، فصل "طبيعة المنهج القرآني" ص ٢٠ - ٤٥ (الطبعة السادسة)

(٤٩) نفسه ٩/١٦٩ –٢٠١ ، وانظر معالم في الطريق ، فصل "الجهاد في سبيل الله" ص٥٥ - ٨٢ (الطبعة السادسة).

كتب للمؤلف

أ. الاعمال التاريخية

١. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز	(الطبعة ٨)	دار ابن كثير – دمشق
٢. عماد الدين زنكي	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٣. دراسة في السيرة	(الطبعة ١٧)	مؤسسة الرسالة – دار النفائس
٤. الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في افريقيا	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
٥. التفسير الاسلامي للتاريخ	(الطبعة ٥)	دار العلم للملايين – بيرو
٦. نور الدين محمود: الرجل والتجربة	(الطبعة ٢)	دار القلم – دمشق
٧. الامارات الارتقية في الجزيرة والشام: اضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة
٨. في التاريخ الاسلامي: فصول في المنهج والتحليل	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٩. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٠. ابن خلدون اسلاميا	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
١١. دراسات تاريخية	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير

١٢. حول اعادة كتابة التاريخ الاسلامي	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٣. المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. المنظور التاريخي في فكر سيد قطب	(الطبعة ١)	دار القلم – بيروت
١٥. حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي	(الطبعة ١)	دار النفائس – بيروت
١٦. مدخل إلى التاريخ الإسلامي	(الطبعة ١)	المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء - بيروت
١٧. الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين	(الطبعة ١)	دار الفكر – دمشق
١٨. دليل التاريخ والحضارة في الاحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو)	(الطبعة ١)	المعهد العالمي للفكر الاسلامي – عمان
١٩. مدخل إلى الحضارة الإسلامية	(الطبعة ١)	المركز الثقافي العربي

ب. الاعمال الفكرية

١. لعبة اليمين واليسار	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
٢. تهافت العلمانية	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
٣. مقال في العدل الاجتماعي	(الطبعة ٥)	دار ابن كثير
٤. مع القران في عالمه الرحيب	(الطبعة ٣)	دار العلم للملايين
٥. افاق قرانية	(الطبعة ٢)	دار العلم للملايين

٦. كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٧. مقالات اسلامية	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٨. اضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٩. مدخل إلى موقف القران من العلم الحديث	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٠. العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم)	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
١١. مؤشرات اسلامية في زمن السرعة	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
١٢. حول اعادة تشكيل العقل المسلم	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
١٣. في الرؤية الإسلامية	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. حوار في المعمار الكوني	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٥. الإسلام والوجه الاخر للفكر الغربي	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة
١٦. مدخل إلى اسلامية المعرفة	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
١٧. قالوا في الإسلام	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٨. رؤية اسلامية في قضايا معاصرة	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٩. القران الكريم من منظور غربي	(الطبعة ١)	دار الفرقان – عمان
٢٠. المرأة والاسرة المسلمة من منظور غربي	(الطبعة ١)	دار الفرقان
٢١. الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الاسلامي	(الطبعة ١)	منشورات فلسطين المسلمة - لندن
٢٢. متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة	(الطبعة ١)	دار الحكمة - لندن

حـ. الاعمال الادبية

١. الماسورون (مسرحية ذات اربعة فصول)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٢. في النقد الاسلامي المعاصر (نقد)	(الطبعة ٥)	دار ابن كثير
٣. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٤. الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (دراسة)	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
٥. جداول الحب واليقين (شعر)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٦. معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٧. خمس مسرحيات اسلامية (ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٨. محاولات جديدة في النقد الاسلامي (نقد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٩. الشمس والدنس (مسرحية ذات اربعة فصول)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٠. مدخل إلى نظرية الادب الاسلامي (دراسة)	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
١١. الاعصار والمئذنة (رواية)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٢. المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٣. العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. الفن والعقيدة (دراسة)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٥. في النقد التطبيقي (نقد)	(الطبعة ١)	دار البشير – عمان

١٦. ابتهالات في زمن الغربة (شعر)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٧. الغايات المستهدفة للادب الاسلامي (نقد)	(الطبعة ١)	دار الضياء – عمان
١٨. كلمة الله (قصص)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٩. الرحيل الى اسطنبول (من ادب الرحلات)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٢٠. ريبورتاج (حوار في الهموم الاسلامية)	(الطبعة ١)	دار الحكمة
٢١. متابعات في دائرة الادب الاسلامي (نقد)	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة